

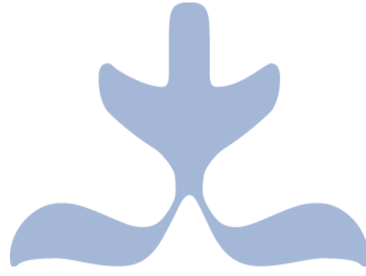
من قصة نبى الله نوح



د. رشيد الجراح

الفهــرس:

الجزء الأول: سفينة نوح ونظرية تكوّن القارات من منظور قرآني...4
ملاحظة 4
نوح يبني السفينة 4
من الذي بنى السفينة؟.. 5
حجم السفينة... 7
كيف كان شكلها وحجمها؟ 7
كيف بنيت السفينة؟ 10
مكان بناء السفينة 10
كيف بنيت السفينة 26
من ركب في السفينة؟ 33
السيناريو الأول 34
السيناريو الثاني.. 34
السيناريو الثالث 35
أين كان يعيش نوح عليه السلام؟ 37
أين حدث الطوفان؟... 39
الدليل الديني.. 47
الدليل الجغرافي والطوبوغرافي.. 49
دحض الافتراض بالدليل العلمي: 52
ما قبل الخلق 52
الدليل اللغوي 61
الجزء الثاني: كم لبث نوح في قومه؟ 64
أولاً: فَلَبِثَ فِيهِمْ... 66
ثانيا: أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فما هو العام وما هي السنة؟ 67
كيف يتم حساب السنة في المجتمعات المختلفة؟ 69
كيف نحسب عمر نوح 73



من قصة نوح

عَلَيْهِ السَّلَامُ

الجزء الأول



الجزء الأول: سفينة نوح ونظرية تكوّن القارات من منظور قرآني

ملاحظة

نشير للقارئ الكريم أنّ هذه النظرية هي في أطوارها الأولى، لذا فمن أحب أنْ يشارك الكاتب بأفكار تساعد على بلورتها على شكل نظرية قرآنية منافسة للنظريات الوضعية فله من الله الأجر ومنا الشكر والثناء، ومن أراد أنْ ينسب هذه النظرية بكليتها أو بجزئياتها له، فهو لن ينال إلا عقوبة السارق (فنحن نؤمن أنّ الله يعلم من دفع ثمن الأضحية)، أما نحن فلن نلاحقه لا قضائياً ولا أكاديمياً، وأما من ظن أنّ كلامنا لا يعدو أكثر من هراء، فهو بلا شك لم يجاوز الحقيقة وليرسل هذا الملف بأكمله إلى recycle bin على جهازه.

نوح يبني السفينة

لقد وردت قصة نوح مع قومه بشكل عام وقصة بناء سفينته بشكل خاص في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ولعلي أهدف في عجالة أنْ أبين أنّ الإشارات النصية داخل السياق الواحد وكذلك الإشارات النصية في نصوص سابقة وأخرى لاحقة تسعفنا في فهم الموقف الذي يصوره القرآن الكريم بشكل أكثر شمولية. إنّ جمع الأدلة على المعاني المستقصاة لا يمكن أنْ يحدده سياق واحد، فنحن نعلم أنّ الموقف قد يذكر في القرآن الكريم عشرات المرات، وكذلك تتكرر الألفاظ، وما نحن بصدده هو تبيان كيف تسعف الألفاظ بعضها بعضاً في تشكيل تصور أوسع وأعمق للموقف.

لعل الشروحات الكثيرة لقصة بناء سفينة نوح لم تعطي صورة متكاملة للحدث، فبقيت على شكل أفكار متناثرة هنا وهناك، ونحن ننوي أنْ نقدم قراءة –كما نعتقد- أكثر شمولية لقصة السفينة، لربما تلبى إلى حد ما شغف القارئ للقرآن الكريم وذلك باستغلال الإشارات النصية، فكثيراً ما تردد في ذهن القارئ للقرآن الكريم التساؤل الكبير التالي: هل يورد القرآن الكريم إجابات لكل ما أحاط بقصة سفينة نوح مثلاً؟ وغالباً ما ورد في الفكر الديني قولاً صريحاً أو ضمنياً الاعتقاد أنّ كثيراً من الأسئلة التي قد تدور في ذهن القارئ لا ترد إجابات لها في كتاب الله لأنها لا تعنينا أو ربما لا تقدم ولا تؤخر معرفتها في شيء، فما الداعي لذكرها؟! إننا نخالف من يقف هذا الموقف في أمور ثلاث: أولاً نحن نؤمن أنّ كتاب الله كامل ففيه المعرفة بأكملها وهو بذلك لا يقدم شيئاً مبتورا، ثانياً لا يمكن لأي شخص مهما بلغ علمه أنْ يدعي المعرفة الكاملة بكتاب الله، فحقيقة أننا لم نستطع لغاية الآن فهم أمر ما لا يعني أنه لا يمكن تأويله على الإطلاق، فالله قال في كتابه الكريم:

- ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾ [الأعراف: 53]

- ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ [يونس: 39]

فأسرار هذا الكتاب لا تنفك عن التجلي يوماً بعد يوم، فكيف إذاً بنا نصدر أحكاماً مسبقة على ما نجهل؟ فحتى يتجلى تأويل هذا الكتاب كلياً نبقى على اليقين أنّ فيه العلم الوفير الذي نعرف قليله ونجهل كثيرة. وثالثاً، والحالة كذلك تبقى المعرفة (وبالتالي الأسئلة التي تدور في ذهن القارئ) ليس فيها ما يمكن أنْ يعتبر زيادة وغير مهم، فمهما كبرت المعرفة أو صغرت فهي مفيدة وقد تسعف في الفهم العام، فلربما ساهمت فكرة بسيطة جداً في حل إشكالية أمر جلل، وهنا نؤكد أنْ لا حدود لطرح الأسئلة إنْ كان المقصود منها زيادة الفهم وتوسيع الإدراك، وإذا كان هذا صحيحاً فمن حقنا أنْ نطرح الأسئلة التالية عن سفينة نوح؟

⇐ من الذي بنا السفينة؟
⇐ كيف بناها؟
⇐ كيف كان شكلها وحجمها؟
⇐ أين بناها؟
⇐ كم استغرق بناؤها؟
⇐ من أي مادة بناها؟
حتى لربما وصلنا إلى

⇐ ماذا كان لونها؟

نعم كل هذه الأسئلة وغيرها أسئلة مشروعة نحن بحاجة أنْ نبحث لها عن إجابات، وسنحاول تبيان أنّ القرآن الكريم يقدم لنا إجابات كافية ووافية عنها، ولكن ما هو مطلوب هو أنْ نرصد الإشارات النصية في السياق الواحد ونربطها مع السياقات السابقة واللاحقة لألفاظ القرآن الكريم لندرك كيف يقدم القرآن الكريم الآيات مفصلة غير منقوصة.

من الذي بنى السفينة؟

أما بالنسبة للسؤال الأول، فإننا نعتقد أنّ القرآن الكريم يبين أنّ من قام ببناء السفينة هو نوح نفسه ولم يساعده في بناءها إلاّ قلة ممن اتبعوه، لربما ليس بالحرفة وإنما بالجهد البدني، لذا جاء الخطاب الرباني بالصنع موجهاً لنوح على وجه التحديد:

- ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧﴾ [المؤمنون:27]

وجاءت جميع السياقات التي تتحدث عن نوح وهو يبني السفينة مفردة نوحاً لا يشاركه أحد في الأمر:

- ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: 37-38]

ولنرقب الدقة اللفظية هنا، فلقد جاء الأمر من الله لنوح بصنع السفينة على شكل الخطاب للمفرد **وَاصْنَعِ**، وجاء الفعل من نوح في صنع الفلك على شكل الفاعل المفرد **وَيَصْنَعُ**، وقد جاء خطاب الله لنوح وقومه موجهاً إلى شخص **نوح وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ**.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد قام نوح نفسه بفعل صناعة السفينة

ولعل الجميع يدرك أنّ السفينة (ومن ثم النجاة من الغرق) لم تكن تحمل فقط شخص نوح، ولكن جاء الخطاب من الله في موضع من القرآن الكريم على نحو:

- ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾ [القمر: 13]

ولكنّ النجاة كانت له ومن معه:

- ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: 15]

ولكن السؤال الذي يتبادر للذهن هو: لِمَ جاء الخطاب من القوم مع نوح على صيغة المفرد "**وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ**"، ولم يأت على نحو "سخروا منهم" مثلاً؟ فنقول أنّ ذلك معلل في كتاب الله، فالقوم بنص القرآن لم يكونوا يأخذوا بالحسبان سوى نوح بشخصه، أما القوم الذين آمنوا معه فقد كانوا بالنسبة لعِليَة القوم المتكبرين على نحو ما قالوا هم بألسنتهم:

- ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۢ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧﴾ [هود: 27]

ولهذا جاء رد نوح على عِليَة قومه فيما يخص من اتبعه من المؤمنين:

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾ [هود: 29]
- ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ [هود: 30-31]

إذاً فالذين كانوا يمرون على نوح لم يكونوا حتى يكلّفوا أنفسهم عناء النظر أو مخاطبة هؤلاء القوم وذلك لأنّ أعينهم تزدريهم، ولعل هذا هو ديدن المتكبرين المتجبرين، تأخذهم العزة بالإثم حتى أنْ يعطوا أدنى اعتبار لمن هم في أعينهم "من أراذل القوم".

ولعل الآيات السابقة تؤكد كذلك أنّ نوح كان هو الصانع الفعلي للسفينة وما كان تواجد من معه في موقع السفينة إلاّ على سبيل الانقطاع، فإن حظر بعضهم بناء السفينة يوما غاب أيام، وبالتالي كان المتواجد على الدوام في موقع البناء هو نوح بنفسه. ولعل التعبير القرآني "وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ" تفيد بلا شك التكرار، فهذه الحادثة لم تحصل مرة واحدة بل حصلت مرات ومرات وذلك بدليل اللفظ "وَكُلَّمَا"، وبالتالي فإنّ الحاضرين عند نوح لم يكونوا نفس الأشخاص في كل مرة، فنوح لم يشكل فريق عمل لبناء السفينة، وإنما كان هو من يقوم بهذا العمل، ولا أخال أنّ نوحاً كان سيرد من جاءه معاوناً في بناء السفينة.

حجم السفينة

ولنتذكر كذلك أنّ سفينة نوح كانت كبيرة جداً في حجمها، وربما نستطيع أن نستنبط ذلك من الأسباب التالية:

⇐ **أولا**، لقد طلب الله من نوح أنْ يحمل فيها من كل زوجين اثنين، وهذا بلا شك يتطلب بناء سفينة بحجم ضخم لتستطيع أنْ تحمل مثل تلك الشحنة الكبيرة، ونستدل كذلك على عظم حجم السفينة من قوله تعالى:

- ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: 13]

فالسفينة ذات الألواح والدسر لا شك أنها سفينة عملاقة لأنّ الخشب المستخدم في بناءها هو "ألواح ودسر"، فالألواح هو – برأينا- الخشب المسطح الحجم، والدسر هو الخشب الأسطواني الطويل، فالسفينة بذلك كبيرة في مسطحها "بالألواح" وعظيمة في ارتفاعها "بالدسر".

⇐ **ثانياً**، وربما نستطيع أيضاً أن نستدل على ضخامة السفينة من قوله تعالى:

- ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: 42]

فالسفينة التي تجري في موج بارتفاع الجبال لا بد أنْ تكون عملاقة في حجمها حتى تستطيع مقارعة الأمواج، وهذا دليل على صلابة ومتانة وإحكام بناءها، فهي بنيت من مواد قادرة على التحمل وهي كذلك صنعت بأيد ماهرة، فمادة الصنع وكيفية الصنع كانتا الضمانة الحقيقية لتحمل حجم العقاب الرباني على القوم.

كيف كان شكلها وحجمها؟

وهنا يبرز التساؤل التالي: كيف كان شكل تلك السفينة؟ إننا ندّعي أنّ القرآن الكريم يبين لنا ليس فقط حجم تلك السفينة بل ويصور لنا شكلها أيضاً. إننا نفهم أنّ تلك السفينة كانت تتألف من طابقين وسطح علوي، ودليلنا على ذلك ربما يستنبط من الآيات التالية في كتاب الله:

⇐ **أولاً**، لقد طلب الله من نوح وجميع من ركب السفينة الدخول في جوف السفينة، وذلك بدلالة حرف الجر "فِيهَا":

- ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون: 27]

فلربما الجميع يعرف أنّ من استخدامات حرف الجر "في" عند الحديث عن المكان هو للدلالة على التواجد بداخل المكان، فأنت إنْ قلت "في الدار" فإنك بلا شك تعني داخل الدار، فالناس والدواب كانوا جميعاً في داخل السفينة، ولكنّ السؤال المثير هو: هل يعقل أنْ يكون الناس وجميع الدواب في نفس المكان في السفينة؟ أي كيف بنوح يضع في نفس المكان المخلوقات التي لربما لا تستطيع التعايش مع بعضها ولو للحظة؟ فلنكف عن الجواب الملجم أنّ الله سخرها كذلك، ولنكف كذلك عن بعض الإسرائيليات التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولنتدبر ما في كتاب الله لنفهم القصة كما حصلت فعلاً، ويأتي الجواب في كتاب الله بالنفي، فيصور لنا القرآن الكريم أنّ البشر الذين ركبوا في داخل السفينة لم يكونوا في نفس المكان مع الدواب، ودليلنا على ذلك الآية التالية:

- ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون: 28]

فـ لنرقب مرة أخرى استخدام حرف الجر هنا، فلقد خاطب الله نوحاً أنْ يسكن هو ومن معه "**عَلَى الْفُلْكِ**"، ومما لا شك فيه أنّ "على" المكانية تفيد الارتفاع، فأنت عندما تقول "على الدار"، فإنك لا شك تقصد غير جوف طابقها الأول، فنوح ومن معه "أي من الناس" كانوا في السفينة و على السفينة، أما الحيوانات فكانت فقط في السفينة، وربما يرد البعض على أنّ المقصود بقوله "أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ" ليس فقط الناس بل الحيوانات كذلك، فنقول كلا، بدليل قوله تعالى:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: 40]

فحرف الجر "مع" أُستخدم للدلالة فقط على الناس الذين آمنوا مع نوح، وهذا يعني أنّ الاستواء على السفينة كان فقط للذين آمنوا مع نوح، أما السلوك في السفينة فكان للناس وللحيوانات على حد سواء.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كانت سفينة نوح تتألف من طابقين، لقد استوى نوح ومن معه على السفينة (أي في الطابق العلوي)، وحمل نوح من كل زوجين اثنين في السفينة (في الطابق السفلي).

ونحن نظن أنّه بالإضافة للطابق الثاني، كان نوح يستخدم السطح العلوي للسفينة بدليل:

- ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: 42]

ولعل من الضروري أنْ ندرك أنّ الموجود داخل السفينة وفي خضم ذلك الفيضان لا يستطيع أنْ يرى من هو خارجها أو أنْ ينادي عليه، فحتى يسمعك ويجري حوار بينك وبين من هو خارج السفينة لابد من طريقة تمكنك من التواصل، ولعلنا ندرك كذلك أنّ الإنسان بطبعه يحب الفضول، فلا أخال أنّ نوحاً قد أقفل نفسه داخل السفينة ونام، بل لا بد أنّه ترك لنفسه فرصة أنْ يرى ما سيحلّ بالقوم، فلقد صمّم السفينة بطريقة تمكنه من متابعة الأحداث، إما باستخدام النوافذ أو إمكانية الصعود على ظهرها، وهذا مثبت لأنّ نوحاً قد أجرى خطاباً (وهو على الفلك) مع أبنه (وهو خارجها)، وتم الخطاب ليس بالحوار وإنما بالمناداة (أي الصوت المرتفع):

- ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: 58]

فالمناداة للصلاة تكون بصوت مرتفع، أليس كذلك؟، وهذا يعني البعد المكاني بين المنادي والمنادى عليه، ولعلنا ندرك أنّ المناداة قد حصلت في خضم تلاطم الأمواج:

- ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: 42]

فالمناداة حصلت في تلك الحالة، مما يؤكد البعد المكاني بين نوح وابنه، وهذا كله يشير إلى صعوبة أنْ يحدث خطاب ونوح داخل السفينة، ولكنّنا نعتقد أنّ ذلك الخطاب حصل ونوح على سطح طابقها العلوي. ولو راقبنا النص القرآني جيداً لربما تحصل لنا الفهم أن نوحا كان يرى ابنه في تلك اللحظة:

- ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: 43]

فعندما رفض الولد مصاحبة "أبيه"، حال بينهما الموج "أي تعذر معها التواصل حتى بالمخاطبة بصوت مرتفع"، وقد يبادرنا البعض بالقول أنّ المناداة قد تتم دون أنْ يري المنادي والمنادى عليه بعضهم كما في قوله تعالى:

- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: 50]

ولكننا نقول أنّ من يظن ذلك قد غفل عن ملاحظة مهمة في حالة نوح وابنه، فاللفظ القرآني يشير إلى أن الحيلولة كانت بين المخاطِب والمخاطَب وهما نوح وأبنه فقط، لذا جاء اللفظ بصيغة المثنى "**وَحَالَ بَيْنَهُمَا**"، ولو كان نوح متواجدا في تلك اللحظة في داخل السفينة مع من ركب معه لجاء اللفظ على نحو "وحال بينهم" بصيغة الجمع كما هو الحال بين أصحاب النار الذين ينادون على أصحاب الجنة، لأنه في تلك اللحظة لن يبتعد الغلام عن مدى الإدراك الحسي لوالده وإنما عن مدى الإدراك الحسي للجميع.

كيف بنيت السفينة؟

والسؤال التالي هو: كيف استطاع نوح (إلى حد كبير بمفرده) أنْ يبني سفينة عملاقة كهذه، سفينة تقارع موجاً كالجبال وتحمل من كل شيء اثنين، سفينة تتكون من طوابق ومعدة للتواصل مع العالم الخارجي؟"

إنّ هذا السؤال يقودنا إلى الاستنتاج التالي: لقد توافر لنوح ليس فقط القوة الجسمية لتحمل مثل هذا العمل الشاق وإنما التقنية التي تسهل عليه عمله، إننا نعتقد أنّ نوحا قد استخدم طريقة في العمل سهلت عليه إنجاز ذلك العمل الضخم، والسؤال هو: ماذا كانت تلك التقنية؟ نقول لقد استفاد نوح من جغرافية المكان لبناء تلك السفينة العملاقة، إننا ندعي أنّ بناء السفينة قد تم في مكان تكثر فيه الأشجار والأنهار، وكان موقع البناء مكاناً منخفضاً (ولنقل كالوادي أو ضفة نهر منخفض مثلاً) ومحاطاً بالجبال الشاهقة من أكثر من جهة، وقد يرد البعض على الفور بالقول: وهل هذا مذكور في كتاب الله؟ فنقول نعم، وسنحاول تبيان ذلك حالاً.

مكان بناء السفينة

لعل طلب الله من نوح ببناء السفينة وقيام نوح ببنائها من ألواح ودسر تؤكد إمكانية توافر المادة الخام في ذلك المكان، فلا أخال أن الله سيأمر نوح ببناء سفينة في الوقت الذي لا يمكن أن يتواجد في مكان تواجده المادة الخام التي يستخدمها نوح في عملية صنع السفينة.

نتيجة مفتراة: لقد كان مكان تواجد نوح متوافر فيه المادة الخام اللازمة لصنع السفينة.

ولعل حصول الزيارة السريعة من قوم نوح له على موقع العمل تؤكد أنّ نوحاً لم يبني السفينة بعيداً عن قومه وإنما على مرأى منهم ومسمع، فالقوم إذاً كانوا يقطنون منطقة مليئة بالأشجار التي يصلح خشبها لبناء السفن العملاقة، وهذا يؤكد أنّ المنطقة شجرية من الطراز الأول.

ولعلي أظن أن نوحا قد اختار قعر الوادي (أو لنقل مكاناً منخفضاً نسبياً) كموقعاً للبناء، والدليل على ذلك في كتاب الله قوله تعالى:

- ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: 38]

فالقوم إذاً كانوا يمرون عليه، وهذا يعني أنّ القوم كانوا في موقع مرتفع بالنسبة لنوح، فنحن نعرف كما ذكرنا سابقاً أنّ "على" المكانية تفيد الارتفاع، ولو كان القوم في مكان مواز بارتفاعه موقع بناء السفينة الذي كان يتواجد به نوح لجاء الخطاب على نحو "وكلما مر به ملأٌ من قومه"، وقد ورد هذا التركيب في موضع آخر في كتاب الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾ [المطففين: 29-30]

فالعربية تجيز استخدام حرف الجر على وحرف الجر بـ في قولنا "مررت على فلان" و"مررت بفلان"، ولعل استخدام "على" في هذا المقام يفيد على الأقل أمرين، أولهما أنّ المرور كان من مكان مرتفع، وثانيهما أنَ المرور كان سريعاً ومقصوداً. وهذا ربما يؤكد ما زعمناه في مقالة أخرى بأن على تفيد أن طرف واحد على الأقل كان يرى الطرف الآخر، فلا أخال أن نوحاً كان يرى كل من يمر عليه من قومه، ولكن لا شك عندنا أن من كان يمر على نوح كان يراه. (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان معنى حرف الجر على في العربية).

أما الدليل الآخر على افتراضنا أنّ نوحا قد اختار قعر الوادي لبناء السفينة فيأتي من رد ابنه على طلب والده ركوب السفينة معهم، فجاء على نحو:

- ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: 43]

والسؤال البسيط جداً هو: ما دام أنّ الطوفان قد حصل في مكان بناء السفينة فأين كانت تلك الجبال التي كان يظن الغلام أنها ستنقذه من الغرق؟ والدقة تستلزم أيضاً تدبر قول الغلام "سَآوِي إِلَى جَبَلٍ"، وهذا يعني أنّ تلك المنطقة فيها أكثر من جبل واحد، فظن الغلام أنّ واحداً من تلك الجبال سينقذه من الغرق يدلنا على جغرافية المنطقة بشكل جلي. ولعل من الواجب ملاحظته أيضاً أنّ القرآن يصور تلك الجبال على أنّها شاهقة جداً وذلك بدليل قوله تعالى:

- ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: 42-43]

فبالرغم من أنّ الموج نفسه كان بحجم الجبال (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ)، إلاّ أنّ الغلام كان لازال يرى بأم عينه الجبال الحقيقية التي كان يظن حتى الساعة أنّ باستطاعته الوصول إلى قممها لتنقذه من الغرق، وما كان الغلام سيقول ذلك أو حتى يظن به لو لم تكن الجبال الحقيقية في نظره لا زالت أعظم بكثير من جبال الماء التي شكّلها الطوفان، فتلك لحظة الموت، ولا أخال أنّ أحداً سيكذب على نفسه في تلك اللحظة.

الدليل

وهنا نتوقف عند نقطتين أساسيتين وهما:

⇐ **أولاً**، لقد سخر قوم نوح من نبيهم وهو يبني السفينة ولم يسخروا منه من قبل، بل على العكس تماماً فلقد أخذوه على محمل الجد في بداية الأمر:

- ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: 32]

وما جاءت سخريتهم منه إلاّ وهو قائم يبني السفينة:

- ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: 38]

ونتساءل هنا: لم جاءت السخرية في هذا الوقت بالذات؟

رأينا: إننا نزعم القول أنّ هذا التساؤل يدعم الافتراض الذي نقدمه هنا والذي فحواها أن نوحاً كان يسكن مع قومه منطقة مليئة بالجبال شاهقة الارتفاع، والسبب في ذلك أنّ القوم ما كانوا ليصدقوا أنْ يحصل طوفان في تلك المنطقة، فهي منطقة جبلية لا يمكن – في نظرهم- أنْ يشكل فيها الماء مهما عظم ما يشبه الطوفان، فجاءت سخريتهم – برأينا- من إقدام نوح على الإيمان والعمل بما لا يمكن أنْ يصدقه العقل والمنطق، فالذين سخروا من نوح هم الذين جادلوه في بداية الأمر، فحصول طوفان في هذه المنطقة ذات التضاريس الجبلية هو أمر لا يمكن أنْ تقره قلوبهم (ولا عقولهم) التي لم تؤمن، ولكن لنتذكر أنّ حكمة الله في إيقاع العقاب على قوم كانت على الدوام على نحو (**فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا**):

- ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: 2]

وكانت تلك – في مخيلتنا- هي الصورة بالنسبة لقوم نوح، لقد ظنوا أنّ بلادهم (حصونهم) مانعتهم من الله، وهو بالضبط ما ذكره ابن نوح عندما طلب منه "أبوه" اللحاق بهم على ظهر المركب، لقد ظنّ الغلام (كظن قومه) أنّ جبالهم ستحميهم من الطوفان، ولذا جاءت سخريتهم من صنع نوح، فما الحاجة- في ظنهم- لبناء سفينة في منطقة لا يمكن أنْ يغرقها طوفان. ولهذا جاءت سنة الله لمثل من ظن ظنهم على النحو التالي:

- ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنبياء: 41]

⇐ **ثانيا**: يأتي الدليل على زعمنا حول جغرافية المنطقة من حقيقة سرعة غيضان الماء بعد حصول الطوفان، فالطوفان – نحن نفتري الظن- لم يدم طويلاً، لأنّ الماء في منطقة كهذه لا يدوم طويلاً، فهو بلا شك سريع "الغيضان":

- ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: 44]

ودليلنا على سرعة غيضان الماء هو تسلسل الأحداث كما ترد في سورة هود:

- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: 40]
- ﴿۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: 41]

- ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: 42]
- ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: 43]
- ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: 44]
- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود:45-47]
- ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: 48]

إن مراقبة تسلسل الأحداث في الآيتين 44 و 45 تشير بما لا يدع مجالاً للشك بأن مناداة نوح ربه بشأن ابنه قد حصلت بعد أن بلعت الأرض ماءها وأقلعت السماء وغيض الماء واستوت السفينة على الجودي: فانظر عزيزي القارئ الآيات مرة أخرى:

- ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: 44]
- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: 45]

فما معنى ذلك؟

فلو افترضنا أنّ الأحداث كلها حصلت على نحو ذلك الترتيب الزمني لوجدنا أنّ غيضان الماء قد تم قبل مناجاة نوح ربه بشأن ابنه (أنظر الآيتين 44 و45)، ولا أخال أنّ نوحاً قد انتظر سنوات أو حتى أشهرا أو أياماً كثيرة حتى يناجي ربه بشأن ابنه بعد الطوفان، بل على العكس تماماً، فنحن نظن أن أول ردة فعل لنوح على حجم الدمار الذي سببه الطوفان ربما كان "معرفة ما حصل بابنه" وأظن أن ذلك كان قد حصل في غضون الساعات – أو على أكبر تقدير- الأيام الأولى للطوفان،

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أنه مادام أن نوح قد نادى ربه بشأن ابنه بعد أن استوت السفينة على الجودي، إن الأمر الإلهي للأرض بابتلاع ماءها وللسماء بالإقلاع وللماء بالغيضان قد حصل على الفور، فما كان للأرض ولا للسماء أن تتباطأ في تنفيذ أمر ربها، وإن صح زعمنا هذا، يكون الطوفان قد لبث ساعات أو على أعظم تقدير أياماً قليلة.

ولنتذكر كذلك جغرافية المكان التي ساعدت في غيضان الماء، فالله قد أمر الأرض بابتلاع ماءها (فالأرض قد ابتلعت ما أخرجت من ماء) وأمر السماء بالإقلاع عن إنزال المطر، ولكن يبقى تساؤل غاية في الأهمية يتعلق بغيضان الماء وهو – بمنطقنا الركيك -على النحو التالي: لِمَ جاء في كتاب الله تعبير "وغيض الماء" أصلاً ما دامت الأرض قد ابتلعت ماءها وما دامت السماء قد أقلعت عن إنزال الماء؟

رأينا: نحن نظن أن في تلك العبارة القرآنية دليل آخر على سرعة انقضاء الأمر، فالقصّ القرآني غاية في الدقة لتصوير المشهد، فلم يقل الله في كتابه " **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي**" وكفى، بل زاد على ذلك بالقول "**وَغِيضَ الْمَاء**"، فالماء الذي خرج من الأرض ابتلعته الأرض فوراً، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر: 50]

فما يكون للأرض أنْ تتباطأ في تنفيذ أمر ربها، فكما نستطيع أن نتخيل سرعة السماء بالإقلاع عن إنزال المطر بأمر ربها نستطيع كذلك أن نتصور سرعة الأرض في ابتلاع ماءها بأمر ربها.

ولكن ما الذي حصل للماء الذي نزل من السماء؟ لما جاء الخطاب القرآني على نحو "**يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي**" فهمنا أنّ الأرض قد ابتلعت الماء الذي تفجر منها" وذلك بدليل قوله "**ابْلَعِي مَاءكِ**"، ولم يقل مثلاً "ابلعي الماء"

نتيجة مفتراة: لقد بلعت الأرض ما أخرجت من ماء فقط (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ)

وهذا لا شك يثير التساؤل التالي: ما الذي حصل للماء الذي نزل من السماء؟

رأينا: نحن نظن أنه مادام أن الأرض لم تؤمر بابتلاع الماء الذي نزل من السماء وإنما أمرت فقط بابتلاع ماءها الذي أخرجته من داخلها، لذا نحن نفهم أنّ الماء الذي نزل من السماء بقي على سطح الأرض، لذا جاء التصوير الإلهي (وليس الأمر إلهي) لهذا الماء بأن يغيض، أي يتم التخلص منه بشكل طبيعي بفعل العوامل الطبيعية كالجريان والتبخر مثلاً، والدقة تستدعي الانتباه إلى الألفاظ نفسها، ولكن كيف؟

نحن نظن أن الله قد ذكر لنا في كتابه الكريم طريقة أخرى لذهاب الماء وهو الغيضان "**وَغِيضَ الْمَاء**"، فكيف كان الماء سيغيض؟ هل بالتسرب في جوف الأرض؟

رأينا: كلا، لأنّ تسرب الماء إلى داخل الأرض هو "ابتلاع وليس غيضان"، فالأرض أُمرت بابتلاع الماء وليس بغيضان الماء (**يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ**). وليرقب القارئ الكريم الدقة المتناهية في استخدام الأفعال، فلقد جاء حدث ابتلاع الماء بصيغة الأمر "**ابْلَعِي**" وجاء حدث إقلاع السماء بصيغة الأمر كذلك " **أَقْلِعِي**"، أما حدث غيضان الماء فلم يأتي بصيغة الأمر ولكن بصيغة فعل الماضي "**وَغِيضَ**"، فلماذا؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن أبسط ما يمكن أنْ يستنتج من ذلك أنّ الحدث الأول (الابتلاع) والثاني (الإقلاع) كانا فورياً لأنهما كانا أمراً إلهياً، أما الفعل الثالث (الغيضان) فكان طبيعياً، لذا فإننا نزعم القول أنّ غيضان الماء هو نقص الماء بالجريان الطبيعي، فالماء الذي نزل من السماء جرى على سطح

الأرض وذلك بفعل جغرافية المنطقة من الارتفاع نحو المنحدرات، فتكوّم الماء "أو حتى السوائل" يغيض إنْ هو تناقص بالجريان، ونحن نظن أن بإمكاننا أن نستنبط الدليل على زعمنا هذا من قوله تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨﴾ [الرعد: 8]

فكذلك – برأينا- هو غيض الأرحام، فما يتكون من سوائل داخل رحم المرأة ليشكل ما يشبه الطوفان حول الجنين لا شك أنّه يتناقص بالغيضان حتى يخرج الجنين من بطن أمه.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتصور المشهد على النحو التالي: لقد شكل الطوفان حول القوم ما يشبه ما تشكله السوائل حول الجنين في بطن أمه، ولا ينفك الرحم عن الغيضان حتى يخرج الجنين، فذلك هو – برأينا- الغيضان، أما في حالة قوم نوح فقد قضى عليهم الغيضان وذلك لأنّه جرفهم في طريقه نحو المنحدرات، ولم يخرج سالماً من ذلك الطوفان إلا جنين واحد وهو سفينة نوح بما كانت تحمل فيها من الذين لحقوا بنبيهم.

والجميل في التصوير القرآني للغيضان هو - في رأينا- أنّ ذاك الغيضان كان ضرورياً جداً بعد حصول الطوفان، وإلاّ لبقيت المنطقة التي حصل بها الطوفان مغطاة بالجثث التي أهلكها الطوفان، ولتسبب ذلك حينئذ بكارثة بيئية كان يصعب على نوح ومن معه "على قلتهم" أنْ يتعاملوا معها، فكيف سيستطيع هو ومن معه أنْ يتخلصوا من كثرة الجثث التي لا شك كانت ستتعفن بعد ذلك الطوفان العظيم (هذا إن كانت أصلا قد استقرت في مكان حصول الطوفان)؟ لقد جاء غيضان الماء – برأينا- لينظف المنطقة بأكملها من كل ما يمكن أنْ يسبب فيها الأذى لنوح ومن معه، ولعل البعض يقول وأين ذلك في كتاب الله؟ فنرد على ذلك بالتذكير بالآية التالية:

- ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٨﴾ [هود: 48]

والسؤال المشروع الذي نود أنْ يتفكر به القارئ هو: ما معنى قوله تعالى "**يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا**"؟ أي لم ذكرت لفظة السلام هنا؟ لعلنا نظن أنّ السلام تعني بأبسط معانيها "عدم حدوث أذى للقوم"، فربنا يخاطب النار لتكون برداً وسلاماً على إبراهيم:

- ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: 69]

فما تأذى إبراهيم من تلك النار، وكذلك هبط نوح ومن معه بسلام على الأرض فما تأذوا مما حلَ بالقوم.

نتيجة مفتراة: إننا نزعم إذاً أنّ جغرافية المنطقة قد ساعدت على أنْ يهبط نوح ومن معه بسلام فلا يتأذوا من تراكم الجثث الهالكة، ولعل الدقة تستدعي أيضاً أنْ نشير أنّ تلك الجثث لم تبتلعها الأرض وذلك لأنّ الأمر الإلهي للأرض جاء على نحو "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ"، فلم تؤمر الأرض بابتلاع شيء غير الماء الذي أخرجته من داخلها، وهذا يقودنا إلى التساؤل التالي: أين ذهبت تلك الجثث التي أهلكها الطوفان على كثرتها؟ رأينا: نحن نظن هو أنها ذهبت مع السيول الجارفة بفضل حركة "غيضان الماء" وليس ابتلاع الماء.

وهذا يقود إلى افتراض ربما يكون أكثر إثارة وهو: لربما أنّ نوحا قد هبط بمنطقة غير تلك التي حصل فيها الطوفان، فأين يا ترى استوت سفينة نوح؟

رأينا: نحن نزعم القول أن سفينة نوح قد استوت في بلاد القوم أنفسهم، لأن سرعة حدوث الطوفان وانقضاء الأمر بالسرعة التي تصورها الآيات القرآنية (كما نفهمها نحن) يشير إلى أنّ السفينة لم تقطع مسافات طويلة،

الدليل

⇐ **أولاً**، لنتذكر أنه عندما جرت السفينة جرت في نفس المنطقة التي حصل بها الطوفان وذلك بدليل أنّ نوحاً قد نادى ابنه في خضم جريان السفينة، أي عندما كان الماء يشكل ما يشبه الجبال حول السفينة:

- ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: 42]

وقد ذكرنا آنفاً أنّ مناجاة نوح ربه بشأن ابنه قد سبقها توقف الطوفان وانقضاء الأمر برمته واستواء السفينة:

- ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: 44-47]

فما هي إذاً المسافة التي يمكن أنْ تقطعها السفينة في فترة وجيزة كهذه؟ فلقد استوت السفينة على الجودي قبل أنْ ينادي نوح ربه بشأن ابنه، وإنْ صح هذا التصور يكون الجودي "منطقة استواء السفينة" جزءا من منطقة سكن نوح وقومه، وما دام أنّ الماء كان يغيض، فيكون الجودي هو المكان الذي استوت عليه السفينة بمجرد ابتلاع الأرض ماءها، ويكون ما غرق من الجثث قد نزل إلى ما دون ذلك المكان بسبب غيضان الماء.

افتراء من عند أنفسنا: كان الجودي المكان الآمن الذي استقرت عليه سفينة نوح ومن معه ليهبطوا بعدئذ بسلام من ربهم وبركات جزءاً من منطقة سكن القوم.

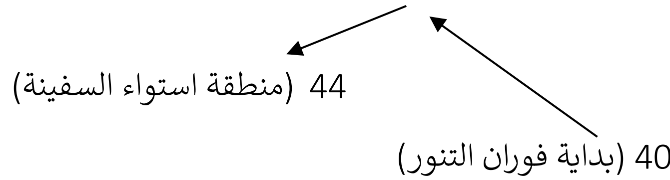
الدليل

لعلنا بحاجة هنا إلى مراقبة الألفاظ بدقة لنسأل: لم جاء لفظ الجودي بالاسم مقروناً بأداة التعريف؟ فنحن نظن أن هذا الاستخدام في العربية يمكن إجازته في حالة أنْ يكون المكان معروفاً للقوم، فاستخدم الاسم معرّفاً دونما صفته يعني أنه معروف، فلو لم يكن المكان معروفاً بالنسبة للقوم لجاء القول بالصفة الملازمة له كأن يكون مثلاً جبلاً أو وادياً أو نهراً أو بلداً وهكذا، أي لجاء اللفظ مثلاً على نحو "جبل الجودي" أو بلد الجودي أو نهر الجودي وهكذا، ولكن لما حذفت الصفة واستخدم الاسم معرفاً بال

التعريف، فإنه يحق لنا أن نظن أن المكان معروف للقوم، فتكون السفينة قد استقرت في مكان مألوف بمجرد ذكر اسمه مقترناً بأداة التعريف، ويكون بذلك قد هبط نوح ومن معه في مكان معروف بالنسبة له ولقومه، فهم لم يبتعدوا كثيراً عن المكان الذي كانوا يقطنونه قبل حصول الطوفان، وبمقارنة هذه الصيغة مع صيغة مشابهة تتأكد الفكرة نفسها:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40]
- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: 44]

فتدبر صيغة "**وَفَارَ التَّنُّورُ**" تؤكد أنّ التنور كان- بلا شك- معروفاً للقوم، وكذلك كان الجودي، ففي كلا الحالتين أستخدم الاسم مقروناً بال التعريف دونما صفته، فكما لم تذكر صفة التنور (على أنه نبع ما، أو نهر أو حتى عين ماء أو حتى فرن خبز كما أخطأ الكثيرون في ظنهم) لم تذكر صفة الجودي (على أنه سهل أو وادي أو حتى جبل أو نهر)، ولكنّ المتدبر للسياق يدرك أنّ الطوفان –كما ذكرنا سابقاً- بدأ من أخفض نقطة (التنور) فأخذت السفينة بالارتفاع، وانتهى عند أعلى نقطة، واستقرت السفينة بينهما (الجودي) عندما أخذت بالاستواء، وهذان المكانان كانا – في ظننا- من أشهر المناطق المعروفة للقوم في مكان سكناهم، لذا فقد وردا في كتاب الله دونما الصفة الدالة على كل منهما، وبالتمثيل البياني باستخدام أرقام الآيات للتدليل على الفكرة نجد الشكل التالي: (ذروة الطوفان)



ومما يدل أيضاً على أنّ التنور (كما الجودي) كان معروفاً للقوم هو الصيغة التي ورد فيها في الآية نفسها، ولنتدبر الآية نفسها مرة أخرى مركزين على قوله تعالى "**وَفَارَ التَّنُّورُ**":

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40]

وهنا نجلب انتباه القارئ إلى التساؤل التالي: لِمَ استخدمت الواو في صيغة "**وَفَارَ التَّنُّورُ**"؟ لِمَ لَمْ ترد الصيغة القرآنية على نحو "حتى إذا جاء أمرنا فار التنور" دون وجود الواو مثلاً؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أنّ فوران التنور كان حدثاً مصاحباً وإشارة دالة على أنّ أمر الله قد جاء ، فيكون بذلك فوران التنور حدثاً منفصلاً وليس جزءاً من أمر الله، لذا جاءت الصيغة على نحو (**حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ**). ولكن لو جاءت الصيغة على نحو "إذا جاء أمرنا فار التنور" فإن فوران التنور سيكون – لا شك عندنا- جزءاً من الأمر الإلهي الذي جاءهم في تلك اللحظة، ويترتب على هذين السياقين معان جمة.

⇐ **أولاً**، إنّ ورود واو المعية (المصاحبة) تعني أنّ حدث فوران التنور لم يكن جزءاً من الأمر الإلهي الذي جاء القوم في تلك اللحظة، وبالتالي يكون فوران التنور أمراً معلوماً لنوح وقومه من ذي قبل، فالقوم قد اعتادوا على ذلك التنور يفور، فكان الأمر الإلهي الذي جاء لنوح على نحو أن التجهز والدخول في الفلك موعده فوران التنور.

⇐ **ثانياً**، لمّا كان الأمر كذلك (أي أنّ فوران التنور أمر معلوم للقوم من ذي قبل) كان ظنهم أنّ ذلك لن يكون طوفانا عظيما، فعندما دعا نوح ابنه للركوب معهم في السفينة، كان الغلام لازال يظن أنّ ذلك من قبيل فوران التنور الذي اعتادوا عليه في أعوامهم وسنينهم السابقة، لذا جاء رده " **قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء**" ولم يعلم أنّ الأمر اليوم مختلف، فجاء رد والده على نحو "**قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ**"، وهنا نثير تساؤلاً آخر وهو: لم استخدم نوح في رده على قول ولده لفظة "اليوم"؟ لِمَ لَمْ يقل مثلاً " لا عاصم من أمر الله إلا من رحم" وكفي، ويكون بذلك المعنى أشمل على نحو قانون إلهي يصلح في جميع الأوقات والأحوال؟ **رأينا**: لقد وردت لفظة "اليوم" – في ظننا- لينبه نوح ولده إلى الأمر التالي: إنّ فوران التنور هذه المرة وما سيحصل بالتحديد في هذا "اليوم" مختلف عن ما عهدنا من الأمر سابقاً، أي أنّ الأمر هذه المرة "اليوم" ليس كما تظن، وهذا بالضبط ما قالته الأمم الأخرى عندما كانت ترى للوهلة الأولى العقاب الرباني قادم إليهم:

- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ... ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: 24]

فالقوم ظنوا أنّ ذلك عارض كالذي كانوا يعهدونه من قبل، ولكن لم يكونوا يدركون أنّ الأمر هذه المرة مختلف، فجاء التحول بقوله تعالى:

- ﴿... بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: 24]

وكذلك هو الأمر – في ظننا- بالنسبة لقوم نوح "**لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**"، فمغزى القول أنّ ذلك الحدث وهو "فوران التنور" كان أمراً معلوماً للقوم، لذا جاءت الصيغة على نحو "**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ**" ولم ترد على نحو "حتى إذا جاء أمرنا فار التنور"، فلو جاءت هذه الصيغة لكان فوران التنور جزءاً من الأمر الإلهي ولأدرك القوم منذ اللحظة الأولى أنّ الأمر مختلف، ولحملوه على محمل الجد منذ البداية، ولكنّ الله لم يكن ليقدّم لهم الآيات لتكون سبباً في هداية من لم يكن آمن من ذي قبل، ولنتصور الموقف من خلال السؤال التالي: كيف بالقوم يرون آيات الله أمام أعينهم (الطوفان) فلا تتسبب تلك الآيات في هداية حتى شخص واحد؟! ألم يخطر ببال أحدهم أنّ الأمر فعلاً على نحو ما قال نوح؟ لم لم يقل واحد منهم في نفسه "تعال ننجو مع الرجل فلربما أنّ الأمر جد خطير"؟

رأينا: كلا وألف كلا، لقد آتاهم الله من حيث لم يحتسبوا لأنّ الله قد علم ما في أنفسهم فوجه الخطاب لنوح حتى قبل الأمر ببناء السفينة، فقال تعالى:

- ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: 36-37]

لذا جاء الأمر الإلهي لهم – برأينا- على نحو ما يمكن أن يزيد في إصرارهم على المكابرة والمفاجرة، فتلك القلوب لم تكن لتؤمن حتى ترى العذاب الأليم:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: 96-97]
- ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٠٢﴾ [الشعراء: 201-202]

ولا ننسى أنّ فرعون نفسه لما أدرك انّ الأمر واقع لا محالة تلفظ بتلك الكلمات:

- ﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: 90-91]

نعم لقد حقت كلمة الله على قوم نوح، فجاءهم العذاب الأليم بغتة وهم لا يشعرون، فلو علموا به قبل ذلك لربما حاولوا النجاة حتى بأجسادهم ولا ننسى أنّ نوح قد بدأ بتحميل السفينة مع فوران التنور، فلب القول أنّه لو أدرك القوم أنّ فوران التنور أمر خطير هذه المرة "اليوم" لربما كانت ردة فعل بعضهم كردة فعل فرعون، ولكنّ بقي القوم (لربما حتى ذهبت السفينة ولم يكن بالإمكان اللحاق بها) يكابروا ويكذّبوا.

والملحوظ الآخر الذي يدل على أنّ أمر الله أتاهم من حيث لم يحتسبوا هو – برأينا- توقيت الطوفان، فمتى حدث الطوفان؟

نحن نظن أن الطوفان قد حدث مع فوران التنور، ونحن ندرك أنّ فوران التنور تعني خروج الماء من أسفل إلى أعلى، أي خروج الماء من باطن الأرض، ولعلنا نفهم كذلك أنّ الفوران يعني ازدياد كمية الماء المخزون في باطن الأرض وبالتالي تدفقه إلى أعلى، ولعلنا ندرك كذلك أنّ فوران التنور (سواء كان ينبوع ماء أو سيل ماء أو عين ماء أو حتى نهرا) قد لا يحدث إلاّ في أوقات المطر، وهذا يعني أنّ باطن الأرض أخذ يخرج الماء منه عندما زادت الكمية الممكن تخزينها في داخلها، وإنْ صح هذا الاستقراء يكون الطوفان قد حصل في فصل المطر، لذا ظن القوم (ممثلين بولد نوح) أنّ المطر في هذا الوقت من السنة هو أمر متوقع قد لا يثير الاستغراب أو الهلع، فجاء رد ابن نوح بنبرة المتيقن مما يستطيع فعله:

- ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ۝٤٣﴾ [هود: 43]

مما يدل على أنّ الغلام كان لا زال يظن أن باستطاعته النجاة من طوفان كهذا، ولا أظن أنّه كان سيرد بتلك الطريقة لو لم يكن الأمر بالنسبة له من الأمور المتوقعة في ذلك الوقت من العام، فلو كان الطوفان قد حصل في وقت غير وقت سقوط المطر الطبيعي لربما ظن البعض (ولو نفر قليل منهم) أنّ ذلك من صدق نبوءة نوح ولربما كانت ردة فعلهم على نحو غير ما علمنا.

وهذا التصور شامل لكل أنواع العقاب الرباني الذي كان يحل بالأمم والأقوام السابقين. فلقد ذكرنا الآيات التالية سابقاً ولكنا نعيدها هنا لتأكيد الفكرة التي نناقشها في هذا السياق:

- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: 24]

فالقوم قد رأوا المطر قادماً فظنوا أنه المطر الذي اعتادوا عليه سابقاً، ولكن أمر الله جاءهم من حيث لم يحتسبوا:

- ﴿... فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ... ﴿٢﴾﴾ [الحشر: 2]

ثانياً، لنتدبر الآيات التالية التي استخدمها نوح في دعوة قومه:

- ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: 8-12]

والسؤال البسيط هو: لِمَ استخدم نوح تلك الحجج في دعوة قومه؟ إننا نزعم الظن أنّ نوحاً لم يكن ليستخدم دليلاً إلا ما لا يستطيع قومه تكذيبه، فهم لا يستطيعون إنكار أنّ الله ينزل عليهم السماء مدرارا، ولا يستطيعوا تكذيب أنّ الله قد أمدهم بالبنين، وأنّ الله قد جعل لهم جنات، وأنّ الله قد جعل لهم أنهاراً، وذلك لأنّ جميع هذه الأمور كانت متوافرة لهم قبل حصول الطوفان، أليس كذلك؟ وبالتالي فالمنطقة التي كانوا يسكنوها كانت تتميز - بالإضافة لما ذكرناه سابقاً- بغزارة أمطارها، وكثرة جناتها وأنهارها، فالمطر الغزير وفوران التنور (فيضان النهر) هي من الأمور المتوقعة جداً خصوصاً في فصل المطر، وبهذا يكون العقاب الرباني قد نزل على القوم من حيث لم يحتسبوا. فالمتدبر لقول نوح "**يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا**" يدرك أنّ المطر الغزير لم يكن استثنائياً في تلك المنطقة، فالقوم قد اعتادوا على غزارة الأمطار حتى أصبحوا يتمتعوا بالنعم من الجنات، فخلاصة القول هي أنّ المطر الغزير هو أحد سمات تلك المنطقة. وسنعرض لاحقاً كيف أنّ منطقة سكن قوم نوح (عندما نحددها على الخريطة) تمتاز بطبيعتها بكثرة حصول الفيضانات فيها.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد كان نوح يسكن مع قومه في منطقة تمتاز بغزارة الأمطار (يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا)

ولعلنا بحاجة أيضاً أنْ نتوقف هنا لنطرح الفكرة التالية: لم صاغ نوح الفكرة على نحو: **وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**؟ فلعل فكرة تعدد المال والبنين سهلة الاستيعاب، فقد يتحصل للشخص الواحدة أموال كثيرة وأكثر من ولد واحد:

- ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: 46]

- ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨﴾ [الشعراء: 88]
- ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩﴾ [الصافات: 149]
- ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ٣٩﴾ [الطور: 39]
- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]
- ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام:100]
- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ [النحل: 72]
- ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦﴾ [الإسراء: 6]
- ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [الإسراء: 40]
- ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾ [المؤمنون: 50]
- ﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣﴾ [الشعراء: 133]
- ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣﴾ [الصافات: 153]
- ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦﴾ [الزخرف: 16]
- ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤﴾ [القلم: 14]
- ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣﴾ [المدثر: 12-13]

وكذلك فكرة تعدد الجنات، فقد يتأتى للشخص الواحد أو للقوم بمجملهم أكثر من جنة:

- ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرعد: 4]
- ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨﴾ [الشعراء:146-148]
- ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤﴾ [يس: 33-34]
- ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨﴾ [الدخان: 25-28]
- ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩﴾ [ق: 9]

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: 14-16]

ولكن السؤال هو: كيف يمكن تفسير فكرة تعدد الأنهار؟

رأينا: إننا نزعم الظن أيضاً أنّ المنطقة التي كان يقطنها القوم كان يجري بها أكثر من نهر، وإلا لجاء خطاب نوح على نحو "ويجعل لكم نهرا" بدلاً من " وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا"، فلقد وردت لفظة المفرد "النهر" في مواطن أخرى في كتاب الله:

- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: 249]
- ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: 33]

فالذين كانوا مع طالوت ابتلاهم الله بنهر وليس بأنهار، فالقول ليس على المجاز وإنما على الحقيقة، فلم يكن في تلك المنطقة إلاّ نهراً واحدا، وكذلك الحال بالنسبة لصاحب الجنتين، فبالرغم أنهما جنتان (لا جنة واحدة) كان هناك نهر واحد فقط يتفجر خلالهما، فالنهر نفسه كان يخترق الجنتان، ولم يأتي الخطاب على نحو "وفجرنا خلالهما أنهارا" لأنه ببساطة كان هناك فقط نهر واحد.

والآن دعنا نُطبّق المنطق نفسه في حالة نوح عندما قال لقومه "وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا"، ألا يدلنا ذلك على أنه كان هناك أكثر من نهر واحد؟ ربما يرد البعض بالقول أنّ الكلام هنا كان من باب التعميم، فالأنهار موجودة على وجه الأرض بكثرة وبالتالي هي نعمة من نعم الله على البشر بشكل عام، فنرد بالقول أنّ هذا منطق جميل، فصحيح أنّ الأنهار كثيرة وهي من نعم الله ولكن السؤال البسيط لم جاء اللفظ على نحو " **وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**"، أي لم وردت لفظة **لَّكُمْ** هنا على وجه الخصوص؟ فمن هم المخاطبين هنا؟ أليس هم قوم نوح؟ فكيف إذاً بنوح يقول للقوم أنّ الله يجعل لكم أنهارا وهم لا يوجد عندهم أنهارا؟ أو كيف به يقول للقوم أنّ الله يجعل لهم أنهارا وهم لا يملكون إلاّ نهراً واحدا مثلاً؟

رأينا: إننا نزعم القول أنّ نوحاً قد قال ما قال على وجه الحقيقة، فالقوم كانوا يملكون أكثر من نهر، ونحن نزعم الظن أنه ما جاء الطلب الإلهي من نوح إلاّ ببناء الفلك على واحدة منها وهو التنور:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: 40]

افتراء من عند أنفسنا: التنور هو واحدة من الأنهار التي كانت تجري في موطن سكن قوم نوح

الدليل

لنتدبر مفردات الآية الكريمة التالية مرة أخرى:

- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: 44]

فلقد ذكرنا أنّ الأرض قد أمرت بابتلاع ماءها، أي ما خرج من بطنها ولم تؤمر بابتلاع كل الماء وإلاّ لكان ذلك يعني جفاف حتى الأنهار والينابيع وبالتالي صعوبة الحياة بعد الطوفان، وذهاب الجنات والأنهار التي تحدّث عنها نوح كنعم الله على القوم، والسؤال البسيط هو: ألم يكن الطوفان عقاباً للذين هلكوا؟ فلِمَ يكن عقاباً لمن تبقى من المؤمنين بعد الطوفان؟ كلا، لم يكن الطوفان عقاباً للمؤمنين بدليل أنّ الله وعدهم بالتمتع بعد حصول الطوفان:

- ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود: 48]

فلقد استمر قوم نوح بالتمتع بما أنعم الله عليهم من الجنات والأنهار، وقد تحدثنا سابقاً عن غيضان الماء، وزعمنا أنه الجريان الطبيعي المستمر للماء، فكيف إذن يمكن أن نفهم قوله تعالى أنّ الأمر قد قضي والماء لازال يغيض:

- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: 44]

رأينا: نحن نظن أن الأمر غاية في البساطة إنْ نحن ربطنا هذا الأمر بما كان نوح قد حدّث قومه به من قبل حتى حصول الطوفان:

- ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: 12]

فلقد غاض الماء في الأنهار الجارية وبقيت الجنات وبقيت الأنهار كما كانت قبل حصول الطوفان، وهبط نوح بسلام (كما أوضحنا سابقاً) ولكنه هبط أيضاً ببركات، وهنا نتوقف لنسأل عن سبب ورود هذه اللفظة في هذا المقام، فما معنى أنْ يهبط نوح ببركات عليه وعلى من معه من الله؟

- ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود: 48]

إننا نظن أنّها بركات السماء (الماء، الأنهار) وبركات الأرض (الجنات)، وهذا بالضبط ما نفهمه من قوله تعالى في موطن آخر من القرآن الكريم:

- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: 96]

وكذلك نفهم تلك البركات من الله على آل إبراهيم:

- ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: 73]

فنحن نفهم رحمة الله على آل إبراهيم ولكن ما هي البركات؟

جواب: نحن نفهم البركات على آل إبراهيم على النحو الذي وردت به في مكان آخر من كتاب الله:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: 126]
- ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: 54]

فلقد توافر لمن آمن مع إبراهيم (كما توافر لم آمن مع نوح) بركات من الله (أي الرزق الوفير من الثمرات)، وقد تمتع من كفر بما جاء به إبراهيم (كما تمتع من كفر بما جاء به نوح) ببركات الأرض والسماء بعضاً من الوقت حتى اضطروا إلى عذاب الله في الدنيا وفي الآخرة.

فقوم نوح كانوا من أهل القرى الذين كانوا يتمتعون ببركات السماء والأرض، ولكنهم لما كذّبوا رسولهم أخذهم الله "**بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**". نعم، لقد أخذ الله قوم نوح بما كانوا يكسبون، فهم قد عمروا الأرض وكسبوا من بركاتها ولكنّ ذلك لم يغني عنهم من الله شيئاً:

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: 82]

وكذلك كانت سنة الله في جميع الأمم:

- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: 17]

وهذا يعني أنّ قوم نوح كانوا "يكسبون" من بركات السماء والأرض، فحرفتهم الرئيسية هي – بسبب جغرافية الأرض وغزارة الأمطار وفيضان الأنهار – الزراعة. والفرق الوحيد بين البركات على قوم نوح وتلك التي كانت على آل إبراهيم، هو أنها كانت تجبى لآل إبراهيم من مناطق أخرى بينما كانت متوافرة في نفس مكان سكن قوم نوح ودليلنا يأتي على النحو التالي:

فلقد دعا إبراهيم ربه بهذا الدعاء:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: 126]

وكان سبب الطلب هو تواجد أناس من ذريته في ذلك المكان:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

ولكن الملحوظ البسيط هنا هو حتى تتوافر الثمرات فلا بد من تواجد الأمطار والأنهار وذلك لقوله تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأعراف: 57]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ٣٢﴾ [إبراهيم: 32]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ [النحل: 10-11]

فكيف إذاً سيتحقق لسكان البيت الحرام الحصول على الثمرات ما دامت أرضهم لا تتوافر بها الأنهار ولا الأمطار الغزيرة، فالجواب يأتي في مكان آخر من كتاب الله حيث كان ذلك المكان (وهو البيت الحرام) تجبى إليه الثمرات:

- ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: 57]

ولا شك أن التعبير "**يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ**" يعني أنّ الثمرات لم تكن تستنبت في ذلك المكان، ولا أخال أنّ مكاناً واحداً ربما ينبت "**ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ**"، ولهذا كان لا بد من استيراد تلك الثمرات من أماكن مختلفة"، فجاءت رحلة الشتاء والصيف:

- ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ٤﴾ [قريش: 1-4]

فكانت بذلك حرفتهم "التجارة"، أي جباية تلك الثمرات من كل مكان دونما انقطاع صيفاً أو شتاءاً، ولكن تلك الثمار وتلك البركات لم تكن تجبى جباية لقوم نوح لأنهم أنفسهم كانوا يستنبتونها، فآل إبراهيم

اشتغلوا بالتجارة لأنّ المكان الذي كانوا يسكنونه لم يكن تتوافر به عوامل نجاح الزراعة كما كانت تتوافر لقوم نوح.

- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾ [هود: 49]

كيف بنيت السفينة

ربما يحل مثل طرحنا هذا إشكالية التقنية التي استخدمها نوح في بناء السفينة، فلنتصور جغرافية المكان على النحو التالي: منطقة منخفضة محاطة بالجبال الشاهقة التي تكثر فيها الأشجار والأنهار، ونوح يختار منطقة منخفضة نسبياً (كقعر الوادي مثلاً) موقعاً للبناء، وبالتالي كانت التقنية – كما نتخيلها- بسيطة جداً: نوح يقطع الأشجار التي على سفوح الجبال المحيطة ويرسلها (مستفيداً من مبدأ الجاذبية) لتتدحرج إلى قاع الوادي، ولا ننسى كذلك أنّ المنطقة كانت مليئة بالأنهار الجارية، فاستخدمها نوح في نقل المادة الخام إلى مكان صنع السفينة، فنقل الأخشاب في الأنهار أمر غاية في السهولة يستطيع الجميع تخيله، فيصبح العمل سهلاً في نقل المادة الخام إلى موقع العمل (عند الأخذ بعين الاعتبار قلة الأيدي العاملة المتوافرة له آنذاك)، وعندها يكون جل العمل هو ربط تلك القطع الخشبية (الألواح والدسر) مع بعضها بعضا، وهنا يأتي دور نوح وهو صاحب حرفة النجارة (كما تصورها تفسيرات من سبقونا من أهل الدراية).

ودليلنا على أنّ السفينة جهزت بأكملها في قعر الوادي وعلى ضفة نهر جاري ربما يمكن استنباطه من الآيات الكريمة التالية:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود: 40]
- ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٢٧﴾ [المؤمنون: 27]

ونحن نفهم أنّ فوران التنور هو فيضان النهر الذي يسمى "التنور"، خصوصاً إذا كان منبع النهر أصلاً من مكان بعيد وتساقط المطر في تلك المنطقة يحدث بغزارة، وكذلك إنْ كان مصدر النهر الجبال العالية المحيطة، فسقوط الأمطار على أعالي الجبال يعني ارتفاع منسوب مياه الأنهار التي تتغذى من تلك المنطقة، ولا شك أنّ قمم الجبال العالية غالباً ما يكسوها الثلج وتزداد كميات المياه الساقطة من قمم تلك الجبال في فصل الصيف عندما تأخذ تلك الثلوج بالذوبان، فيزداد منسوب المياه في الأنهار التي تتغذى منها، فتفور تلك الأنهار. وهذا يعني أنّ الطوفان قد بدأ مع الأرض وهي تخرج ماءها قبل أنْ ينزل الماء من السماء في منطقة الفيضان، والفوران يعني ارتفاع الماء من أسفل إلى أعلى:

- ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧﴾ [الملك: 6-7]

والفرق – في ظننا- بين الفوران في حالة نوح والفوران في النار هو بالتأكيد درجة الحرارة، ولكنّ الفكرة بسيطة: يبدأ الطوفان بالتنور يفور، أي يخرج الماء من أسفل إلى أعلى، فتزداد كميات المياه على جانبي النهر، وما

دام البناء تمّ في قعر الوادي بجانب النهر ، تبدأ السفينة بالارتفاع شيئاً فشيئا كردة فعل طبيعية على فوران التنور، فكلما ازداد الفوران ارتفعت السفينة إلى أعل. وهذا بلا شك ضرورة حتمية كان لابد من حصولها قبل أن تبدأ السماء بإنزال مطرها الغزير، لأنه لو نزل الماء الغزير قبل أن ترتفع السفينة على الماء لتشكلت السيول الجارفة من أعالي تلك الجبال الشاهقة المحيطة ولربما تسببت في تحطم السفينة قبل أنْ تستطيع أنْ تطفو على سطح الماء، ولكن الماء خرج من الأرض بفضل ازدياد منسوب مياه النهر أولاً حتى ارتفعت السفينة وجرت بالماء كما تجري السفن في البحار، ولما نزل المطر غزيراً ونزلت السيول الجارفة من أعالي الجبال ما كانت ستتسبب في تحطم السفينة.

ولو راقبنا النص القرآني جيداً لوجدنا أن تحميل السفينة قد جاء مع بداية فوران التنور:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود: 40]

فالناس كانوا إذاً لا يقطنون قعر الوادي وإلاّ لجاء الأمر بالتحميل قبل فوران التنور، وإلاّ لغرق من كان هناك قبل أنْ يتمكن من الصعود على السفينة، ولكننا نظن أنّ المشهد كان على النحو التالي: السفينة ترتفع إلى أعلى بفضل فوران التنور، والناس كانوا في تلك اللحظة يجهزون أنفسهم فيلتحقون بمن في السفينة عندما تصل السفينة إلى مستواهم-ولا ننسى أن الناس كانوا يسكنون منطقة تكثر بها الأنهار وبالتالي فهم على دراية باستخدام القوارب وركوب مياه الأنهار- وهم القاطنون سفوح وأعالي الجبال، وليس أدل على ذلك كما ذكرنا سابقاً من أن القوم كانوا يمرون على نوح:

- ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨﴾ [هود: 38]

فهم بلا شك متواجدون في مكان مرتفعاً في جغرافيته عن المكان الذي كان يصنع فيه نوح سفينته. وقد تمّ كل ذلك مع فوران التنور، أي قبل أنْ تتفجر ينابيع الأرض وقبل أنْ تنزل السماء بالماء المنهمر، وربما يفسر مثل ظننا هذا بعض ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢﴾ [هود: 42]

فلو كان الماء نازلاً من السماء في تلك اللحظة بالغزارة الشديدة لتعذر أنْ يكون الغلام في معزل ولا ضير أن يكون الأب –وليس الغلام- في معزل، فيكون المعنى على نحو أنّ نوحاً هو من كان في المكان (أي في السفينة) الذي يعزله عن الماء، أما الغلام فيكون تحت تأثير سقوط المطر في تلك اللحظة، ولكنّ المهم بالأمر أنّ سقوط المطر لم يمنع كلياً حدوث خطاب بين الوالد والولد، وقد يرد البعض بالقول لربما كان الغلام مختبئاً في كهف في بطن الجبل، فنرد بالقول لو كان هذا صحيحا فكيف سيُجري حوارا مع والده؟ فلربما تعذرت الرؤية وذلك لأنّ المطر عندما نزل كان غزيراً جداً منذ بدايته:

- ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١﴾ [القمر: 11]

والغلام كذلك يقول "سَآوِي"، وهذا يعني أنّه حتى اللحظة لم يلتجئ إلى ذلك المخبأ في الجبل بعد،

- ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾ [هود: 43]

وهو كذلك لا زال يظن أنّ المطر لم ينزل من السماء بعد بالشدة التي يمكن أن تسبب طوفاناً في تلك المنطقة حيث الجبال الشاهقة جداً:

- ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١﴾ [القمر: 11]

وهنا لا بد من التوقف وإعادة صياغة الفكرة لأنّ هناك دليل ربما ظن البعض أنّه ينقض الافتراض السابق برمته. لقد ذكرنا أنّ الطوفان قد بدأ من الأرض ولم ينزل المطر الشديد من السماء إلا بعد الحوار الذي جرى بين نوح وولده، أما الدليل الذي قد يسوقه البعض لنقض هذا الافتراض فهو تسلسل الآيات التالية في سورة القمر:

﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ [القمر: 11-12]

وهنا قد يظن البعض أنّ الترتيب كما يتضح من هاتين الآيتين هو: نزول الماء منهمراً من السماء ومن ثم تفجر الماء عيوناً من الأرض، وهذا بالضبط عكس افتراضنا السابق، فنرد على ذلك بالقول أنّ المدقق المتفحص لسياق تلك الآيات القرآنية يلمح بما لا يدع مجالاً للشك أنّ التسلسل الزمني (chronological order) في تلك الآيات هو العكس تماما: لقد تفجرت عيون الماء أولاً ومن ثم نزل الماء من السماء وهو بالضبط افتراضنا السابق، ولكن السؤال هنا هو: كيف ذلك والتسلسل غاية في الوضوح في الآيتين السابقتين؟ رأينا: حتى نفهم الأمر على حقيقته، نحن نظن أن الحاجة ملزمة أن تدبر الآيتين السابقتين في سياقهما الأوسع، ولنورد الآيتين مع الآية التي تليهما مباشرة كما جاءت جميعها في سورة القمر:

- ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾ [القمر: 11-13]

فكل ما هو مطلوب من القارئ الآن هو أنْ يربط التسلسل الزمني في الآيات الثلاث، فلو بدأنا من الآية (11) لكان التسلسل على نحو:

⇐ نزول المطر من السماء منهمرا (11)
⇐ تفجر عيون الماء من الأرض (12)
⇐ حمل نوح ومن معه في الفلك (13)

فيكون السؤال عندها: هل فعلا تم حمل نوح في الفلك بعد نزول المطر من السماء وبعد تفجر عيون الماء من الأرض، أي بعد أنْ التقى ماء السماء مع ماء الأرض؟ الجواب بكل تأكيد كلا.

والآن ندعو القارئ الكريم إلى ترتيب تلك الأحداث عكسياً، أي قراءة الآية (13) أولاً والعودة بعد ذلك إلى الآية الثانية عشر وأخيراً الآية الحادية عشر، عندها يكون ترتيب الأحداث على النحو التالي:

⇐ حمل نوح ومن معه في الفلك (13)
⇐ تفجر عيون الماء من الأرض (12)
⇐ نزول المطر من السماء (11)

وهنا نسأل القارئ سؤالاً بسيطاً: أي ترتيب يمكن أن يكون أكثر وجاهة؟

رأينا: نحن نزعم القول أنّ الترتيب الزمني في سورة القمر قد جاء معكوساً، فالله يرجع الأحداث إلى الوراء، فيبدأ بالحدث الأحدث زمنياً وهو نزول مطر السماء منهمراً ثم يذكر الحدث الذي جاء قبله وهو تفجر عيون الماء من الأرض ثم يذكر الحدث الأقدم وهو حمل نوح ومن معه على الفلك، ولكن لماذا؟

جواب: نحن نظن أنه لا بد أولاً من مراقبة بعض ألفاظ القرآن التي تحدثت عن تفجر ماء الأرض، ففي موطن من القرآن الكريم يقول تعالى:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40]
- ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧﴾ [المؤمنون:27]

وهذه الآيات تتحدث عن فوران التنور، لكن جاء في موطن آخر:

- ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ [القمر: 12]

فالسؤال الآن هو: ما الفرق بين فوران التنور وتفجر عيون الماء من الأرض؟

جواب: نحن نزعم أنّ فوران التنور هو بداية الطوفان أو هو بكلمات أخرى الإنذار من الله لنوح ومن معه أنّ الطوفان قد بدأ بالفعل وبالتالي التجهز بركوب السفينة، ولكن الدقة تستلزم أيضاً القول أنّ مع لحظة فوران التنور يبدأ نوح بحمل من كل زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40]

فتحميل الشحنة سيستغرق بلا شك وقتاً، وما كان ذلك سيحصل بلمح البصر، فالقوم سيحملون بالإضافة لأنفسهم متاعهم الذي سيكفيهم ومن معهم من الحيوانات فترة من الزمن، والآن لنعود إلى تدبرنا ترتيب الأحداث في الآيات السابقة في سورة القمر.

نحن نزعم الظن أنّ الترتيب جاء معكوساً في سورة القمر وذلك لأنّ الحمل في السفينة كان أطول فترة من تفجر عيون الماء ومن نزول المطر منهمراً من السماء، وتفجر عيون الماء هو أطول زمنياً من نزول مطر السماء، ولو استخدمنا أرقام الآيات فقط كدلالة لوجدنا أنّ نزول مطر السماء كان (11) وتفجر ينابيع الماء كان (12) وحمل نوح ومن معه كان (13)، ولو افترضنا أنّ تلك كانت فترة زمنية كاليوم مثلاً - وإننا نؤكد

أنّ هذا ليس أكثر من افتراض استخدمناها لتوضيح الفكرة - لقلنا لقد نزل المطر من السماء أحد عشر يوما وتفجرت ينابيع الماء اثنا عشر يوما وحُمل نوح على الفلك ثلاثة عشر يوما.

أما الفوران الفعلي للتنور وتحميل الشحنة فقد ورد في الآية رقم (40) في سورة هود:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40]

وكان انطلاق الرحلة في الآية (41):

- ﴿۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾ [هود: 41]

وجرت السفينة على الماء الصاعد من الأرض حتى نادى نوح ابنه للركوب معهم في الآية (42):

- ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢﴾ [هود: 42]

وحال الموج بينهما في الآية (43):

- ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾ [هود: 43]

وجاء الأمر الإلهي للأرض بابتلاع ماءها وللسماء بالإقلاع (أي توقف الطوفان)، فاستوت السفينة في الآية (44):

- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: 44]

ونادى نوح ربه في شأن ابنه في الآية (45):

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هود: 45]

وقد يرد البعض بالسؤال: لم جاء الرد من الله في الآية (46) وجاء رد نوح على رد ربه في الآية (47)؟ فهل يعني ذلك أنّ منجاة نوح حصلت في اليوم الخامس والأربعين، بينما جاء رد ربه في اليوم السادس والأربعين وهكذا؟ فنقول كلا إنّ ذلك حوار واحد فالآيات (45) و (46) و (47) كلها جاءت في سياق الحديث عن حدث واحد وبالتالي حصلت في اليوم الأول وهو اليوم الخامس والأربعين، وهنا يرد البعض بالقول ولِمَ لمْ تأتي جميعها في نفس الآية (أي الآية 45)؟ فنقول لو فعلا حصل وجاءت جميعها في نفس الآية لكان الحدث التالي (وهو الهبوط) قد حصل في اليوم السادس والأربعين، فحتى يتوافق مواقع النجوم مع تأريخ الأحداث كان لا بد من الفصل بين حدث المناجاة في الآية (45) مع حدث الهبوط في الآية (48) بآيتين يحتلان الرقمين (46) و (47):

- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٤٧﴾ [هود: 46-47]

وقد يرد البعض بالقول ولم لم تفصل الآية (45) عن الآية (48) بأحداث أخرى غير الحديث عن المناجاة، فنقول أنّ ذلك له دلالته التي قد لا تخفى وهو أنّ الفترة الفاصلة بين استواء السفينة (45) وهبوط نوح (48) لم تكن تشهد أحداث بل هي فترة التفكر بالله والاستغفار من شدة وقع الحادثة في النفوس، ولهذا صورت الآيتين السابقتين وهما (46 و 47) نوحا يرجع إلى ربه ويطلب الرحمة والاستغفار.

وجاء الأمر بالهبوط من السفينة (أي النزول على الأرض اليابسة) في الآية (48)

- ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٨﴾ [هود: 48]

فإذا افترضنا مرة أخرى (نقول فقط على سبيل الافتراض لتوضيح الصورة) أن هذه الأرقام تعبر عن فترات زمنية فتكون الصورة على النحو التالي: لقد فار التنور مدة أربعين يوما، وجاء الانطلاق (بعد تمام الحمولة) في اليوم الحادي والأربعين، وبقي الغلام في مجال رؤية والدة حتى اليوم الثالث والأربعين وهذا يعني أنّ الغلام بقي في مجال رؤية والده طوال اليوم، فلا يعني أنّ مجرد وجود موجة كبيرة حالت بينهما مباشرة، فالموج الذي كان بحجم الجبال كان موجوداً حتى قبل حصول المحاورة، وغرق الغلام لم يكن أمام ناظري والده، فلقد حال بينهما الموج فلم يعلم ما حصل للغلام، فجاء الخطاب من الله ودونما إشراك نوح بالحدث على نحو "**فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**"، وهذا يثبت أنّ ما شاهده نوح هو محاولة الغلام الصعود إلى أعالي الجبال، فكان يرقبه من على السفينة في ذلك اليوم ولكن عندما حاول نوح متابعة أمر ابنه في اليوم التالي لم يتمكن من رؤيته لأنّ الموج أصبح أعظم وأكبر حجما في هذا اليوم، وهذا يثبت أنّ الغرق قد حصل في اليوم والليلة السابقين، وهذا واضح في رد نوح على ابنه: **قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ**، وهذا يعني أنه لن ينجو في ذلك اليوم إلا من رحم الله وهم من ركبوا الفلك مع نوح وابنه بلا شك لم يكن واحد منهم.

وعندما حال بينهما الموج، وقضي الأمر فاستوت السفينة على الجودي في اليوم الرابع والأربعين وهذا يعني أنه باللحظة التي قُضي فيها على من لم يركب السفينة توقف المطر، فما الداعي لنزول المطر وتفجر ينابيع الماء بعد انقضاء الأمر؟ وهل يستطيع أحد أنْ يبقى على قيد الحياة بعد يوم كامل من الغرق؟ لقد سكت الطوفان في اليوم التالي مباشرة لانقضاء الأمر.، وجاء نداء نوح ربه في شأن ابنه وهو لا زال داخل السفينة (وأظن أنه كان في تلك اللحظة على سطح السفينة يتأمل المنظر الرهيب للطوفان) ولنتدبر الآيتين التاليتين ونحاول إدراك المشترك في الحالتين:

- ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢﴾ [هود: 42]
- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥﴾ [هود: 45]

إننا نعتقد أنّ نوحاً كان ينادي من مكان غير الذي كان يتواجد به مع من ركب معه في السفينة، لقد كان نوح يختلي بنفسه حتى وهو على السفينة.بعد انقضاء الأمر في الآية (45)، وبقى نوح ومن معه في داخل السفينة مدة أربعة أيام حتى جاء له الأمر بالهبوط (أي الانتقال) من السفينة إلى اليابسة في اليوم الثامن والأربعين.

وهذا الطرح ربما يؤكد الافتراض التالي: إنّه من غير المعقول أنْ يكون نوح ومن معه قد نزلوا من الفلك مباشرة بعد توقف الطوفان، فلا شك أنّ اليابسة لازالت مغطاة بأكملها بالماء، فما يستطيع نوح بعد أنْ ينزل من الفلك، فمكث على الفلك إلى أنْ جاءه الأمر بالهبوط (أي الانتقال)، فالهبوط هنا يعني الانتقال من مكان (فيه ارتفاع) إلى مكان آخر (أقل ارتفاعا)، وهو ما يؤكد أنّ السفينة قد استوت على مكان مرتفع (الجودي) وعاد القوم إلى موطنهم وهو سفوح الجبال التي أخذ الماء يغيض عنها:

- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ [هود: 44]

والغيض هو التناقص السريع، ونستطيع بكل يسر وسهوله أنْ نتخيل سرعة جريان الماء مادام أنّ المنطقة أصلاً جبليه، فانقضى الطوفان على عجل.

وهذا الطرح يؤكد أنّ الحدث كان تدريجياً، فقد جاء الركوب في السفينة مصاحباً لفوران التنور، فلا يعقل إذاً أنّ فوران التنور قد حدث بشكل هائل لدرجة أنْ يعيق عملية الشحن، وهنا لا بد من التوقف عند التساؤل التالي: لِمَ فار التنور فترة طويلة؟

افتراءات من عند أنفسنا:

⇐ لإعطاء الفرصة لمن آمن مع نوح ركوب السفينة، فهم بحاجة أنْ يحملوا ليس فقط أنفسهم بل أيضاً ما استطاعوا حمله من متاعهم الذي كان بلا شك سيقضي عليه.

⇐ إعطاء الفرصة لحمل من كل زوجين اثنين، وتنظيم عملية الشحن، فلا أخال أنّ الناس (حتى المؤمنين منهم) سيعتادون بسهولة على الركوب مع شتى أصناف الدواب والحيوانات والقوارض الأليف منها والمفترس إننا ندعي أنّ نوحاً لم يحمل معه في الفلك من أصناف الحيوانات إلا ما كان يعيش في المنطقة التي سيشملها الطوفان، فالطوفان لم يغطي سطح الكرة الأرضية بأكملها كما يظن البعض وذلك لانّ ذلك ينتفي مع عدالة من قال في كتابه العزيز:

- ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ۝١٥﴾ [الإسراء: 15]

⇐ إلاّ إذا افترضنا أنه لم يكن يتواجد على سطح الكوكب آنذاك سوى قوم نوح – وهو ما لا يمكن البت فيه، وسنرى لاحقاً أنّ منطقة سكن نوح كانت –بسبب توافر العوامل البيئية- غنية بشتى أصناف الكائنات الحية. وقد يقول قائل ولكن ذلك كان بتسخير من الله، فنقول حتى لو كان كذلك يبقى الإنسان بطبعه إنسان.

⇐ لإعطاء فرصة للحيوانات حتى تدرك بفطرتها التي فُطرت عليها أنّ الأمر مختلف، ولذا يتوجب عليها البحث عن ملجأ (كما تفعل معظم الحيوانات التي تدرك بفطرتها تقلب عوامل المناخ)، وعندما كانت تبحث عن ذلك الملجأ لا شك أنها وصلت إلى السفينة، لذا اقتصر دور نوح على

تنظيم تواجد تلك الحيوانات "في الفلك".

⇐ حتى يتبن لهم-كما أسلفنا- أنه أمر طبيعي كالذي اعتادوا عليه: ففوران التنور بالنسبة للقوم كان أمراً مألوفا لا يستلزم معه كل هذا الهلع، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار جغرافية المنطقة وطبيعتها المناخية، ولكن ما هي إلاّ سويعات ويدرك القوم أنّ الأمر ليس كما ظنوا وأن "**لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ**"، ولا أظن أنّ الذين رفضوا الركوب مع نوح كانوا من بين من شملتهم رحمة الله في ذلك اليوم.

من ركب في السفينة؟

لعل الجميع يدرك من صريح النص القرآني أنّ الذين آمنوا مع نوح ركبوا معه في السفينة، فكانت السفينة تحمل هؤلاء المؤمنين على قلتهم:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40]

فالذين ركبوا السفينة كانوا أهل نوح والقوم الذين آمنوا معه، ولكن يجب أنْ نتوقف هنا عند الاستدراك التالي (**وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**)، فمن من أهل نوح كان قد سبق عليه القول؟ لقد ورد بصريح اللفظ أنّ ولد نوح كان من المغرقين لأنه رفض الركوب بالسفينة:

- ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾ [هود: 42-43]

ولكن السؤال الأكثر إثارة هو: وماذا عن زوجته؟ هل ركبت معه في السفينة؟ فلربما ظن البعض أنْ ليس هناك في كتاب الله ذكر لزوجة نوح في حادثة الطوفان، فيكون سؤالهم على النحو التالي: أين هي وقد علمنا من السياقات القرآنية أنها كانت خائنة لزوجها؟

رأينا: إننا نزعم الظن أنّ زوجة نوح لم تركب السفينة مع القوم لأنها كانت آنذاك متوفية، فنحن نظن أن المرأة قد ماتت قبل حادثة الطوفان، وسنحاول تبيان ذلك من كتاب الله.

⇐ **أولا**، نحن نعلم جميعاً أنّ الله قد ضرب للذين كفروا مثال امرأة نوح وامرأة لوط، قال تعالى:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم: 10]

فلا شك أنّ امرأة نوح كانت من الكافرين، ولكنّ السؤال هو: هل كانت من المغرقين؟ فعندما تحدث الله عن ابن نوح قال عن نهايته (**فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**):

- ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾ [هود: 43]

فلِمَ لَمْ يذكر القرآن الكريم شيئاً عن نهاية زوجة نوح على الرغم أنها كانت من الكافرين كما ذكر عن نهاية ابن نوح؟ للإجابة على هذا التساؤل نتصور أن واحداً من السيناريوهات التالية هو ما حصل فعلاً:

1. أنها ركبت السفينة فلم تغرق
2. أنها غرقت بالطوفان كما غرق ولدها
3. أنها لم تكن زوجة لنوح في تلك اللحظة فلم تعد جزءاً من أهله، إما لأنّ نوحا كان قد تركها أو لأنها هي كانت قد تركته من قبل
4. أنها كانت زوجة لنوح ولكنها كانت متوفية بالموت قبل يوم حصول الطوفان.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نزعم الظن أنّ الاحتمال الأخير هو الأكثر وجاهة، وسنحاول تفنيد الاحتمالات الأخرى السابقة تباعاً.

السيناريو الأول

أما بالنسبة للاحتمال الأول (أنها ركبت السفينة فلم تغرق) فهو مرفوض بنص القرآن الكريم، فالذين ركبوا مع نوح هم (1) الذين أمنوا معه (وزوجته لم تكن منهم) و (2) أهله إلاّ من سبق عليه القول (وزوجته وولده كان قد سبق عليهم القول)، وقد يتساءل البعض هنا وكيف ذلك؟ فنرد بالقول أننا بحاجة أنْ نفهم أولا معنى "**وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**"، فما هو القول الذي سبق؟ فإذا استطعنا أنْ نثبت أنّ زوجة نوح (كابنه) قد سبق عليها القول، نكون بذلك قد أثبتنا أنها قد استثنيت من ركوب السفينة. فلنعد إذاً لطرح السؤال نفسه: ما هو القول الذي سبق؟

جواب: إنّ المدقق في سياق الآيات يدرك أنّ القول الذي يسبق هو بلا شك قول الله، فما هو قول الله الذي سبق في حالة نوح؟ ولابد أن ندرك كذلك أنّ قول الله يسبق على الكافرين، فيكون السؤال على وجه الدقة ما هو قول الله الذي سبق على الكافرين في حالة نوح؟ قال تعالى:

- ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [هود: 36]

أليس هذا هو قول الله الذي سبق على الكافرين من قوم نوح؟ ألم يسبق قول الله على زوجة نوح كما سبق على قومه وكما سبق على ابنه؟ نستنتج إذاً أنّ هؤلاء جميعاً قد سبق عليهم قول الله وبالتالي كانوا من الذين لم يركبوا الفلك مع نوح.

السيناريو الثاني

وقد يرد البعض بالقول، لقد هلكت زوجة نوح بالطوفان إذاً (ما دام أنها لم تركب الفلك مع زوجها)، فنرد بالقول كلا، لم تهلك بالطوفان لأنها لو هلكت به لجاء ذكرها مع الهالكين كما كان الحال بالنسبة لابنها، وقد يرد البعض بالقول أنّ ذلك ليس بالضرورة، فقد تكون هلكت بالطوفان ولم يأت ذكرها في ذلك المقام،

فنرد على ذلك بالقول أنه لو حصل ذلك لكان القرآن – على زعمنا- يمتاز بعدم الإنصاف، وهذا لا شك هو أبعد ما يكون في عقيدتنا، ولكن لماذا؟

جواب: لنتذكر أنّ امرأة نوح قد كانت مثالاً للخيانة كما كانت امرأة لوط، أليس كذلك؟ وهنا يأتي سؤالنا على النحو التالي: لِمَ تُذكر امرأة لوط عندما حل بالقوم العذاب (فيصرح القرآن الكريم بنهايتها الوخيمة) بينما لا يأتي ذكر لـ امرأة نوح في نفس الحالة، لا بل وفي نفس السورة (سورة هود)؟ قال تعالى:

- ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود: 81]

وتكرر ذكرها أكثر من مرة، فورد في سورة الأعراف قوله تعالى:

- ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٨٣﴾ [الأعراف: 83]

لا بل تكرر ذكر عذابها في سورة الحجر:

- ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠﴾ [الحجر: 59-60]

فكيف إذن تذكر امرأة لوط (وهي من أهله بنص الآيات السابقة) في كل مرة يأتي فيه ذكر لهلاك قوم لوط ولا تذكر امرأة نوح ولو مرة واحدة في معرض الحديث عن هلاك القوم؟ فهل امرأة لوط من أهله وامرأة نوح ليست من أهله؟ ومتى تعتبر الزوجة جزءا من أهل الزوج؟

رأينا: إننا نزعم الظن أنّ زوجة نوح (كزوجة لوط) هي من أهل زوجها، فما دام أنه قد حصل ذكر لعذاب زوجة لوط (وهي التي خانت زوجها) كان لابد من ذكر زوجة نوح (وهي التي خانت زوجها كذلك)، لذا نحن نفتري الظن أنّ غياب ذكر زوجة نوح في خضم الحديث عن الطوفان الذي أصاب القوم كان بسبب غيابها عن مشهد العذاب كلياً.

السيناريو الثالث

وقد يرد البعض بالقول، لربما أنّ نوحاً كان قد ترك زوجته بسبب خيانتها فلم تعد بعد جزءً من أهله، ولا تصبح الحاجة ملحة عندئذ أن يذكر مصيرها صراحة في كتاب الله، فنرد على ذلك بالرفض لأسباب ثلاثة على الأقل. أولهما، أنّ ذلك لم ولا يكن من خلق الأنبياء، فلنتذكر أنّ لوطاً (على الرغم أنّ الملائكة قد أخبرته بخيانة زوجته وبهلاكها) لكنه لم يمنعها أنْ تهرب معه، فترك لخالقه حق التصرف بعذابها، ، فعندما هربت زوجة لوط مع زوجها بقطع من الليل كان طلب الملائكة من نوح إخبار أهله أنّ لا يلتفت أحد منهم وراءه، فكان هلاكها من هذا القبيل لأنّ امرأة مثلها لا يمكن إلاّ أن تلتفت وراءها، فقلبها لا شك معلق مع القوم وإن كان جسدها حاضرا مع زوجها:

- ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود: 81]

لذا نحن نفتري الظن أنه لو كانت امرأة نوح لا زالت على قيد الحياة آنذاك لكان تصرف نوح مشابهاً لتصرف لوط، أي لترك الأمر لخالقها أنْ يتكفل بعذابها حتى وإنْ لحقت بزوجها جسدياً.

ثانياً، يجب أن لا ننسى أنّ نوحاً قد طلب في اللحظة الأخيرة من ابنه الركوب معهم، فلم لم يطلب ذلك من زوجته؟

ثالثاً، نحن نفتري الظن أن نوحاً كان يشك بخيانة زوجته ولكنه لم يتأكد من ذلك إلاّ وهو داخل السفينة عندما نادى ربه بشأن ابنه وذلك بعد حصول الطوفان:

- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: 44]
- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هود: 45]

فكان الرد الإلهي على مناداة نوح في الآية التالية هو:

- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: 46]

فما دام أنّ نوحاً حتى تلك اللحظة كان يظن أنّ ابنه من أهله، فهل يمكن لنبي أنْ يتخذ قراراً بترك امرأته بناءاً على شك يخالج نفسه؟ ثم لنتذكر أنه في تلك اللحظة التي علم فيها نوح بخيانة امرأته وبأنّ ذلك الغلام ليس ابنه لم تتحصل لديه ردة فعل على زوجته، فلو كانت امرأته تركب السفينة معه آنذاك وعلم بخيانتها، فهل كان سيترك الأمر دونما أدنى ردة فعل؟ إننا نزعم الظن أنّ نوحا لم تتولد لديه ردة فعل تجاه امرأته عندما علم بخيانتها وهو لازال على الفلك لأنها أصلاً لم تكن موجودة معه آنذاك.

وهنا قد يرد البعض بالقول لربما كان الأمر مختلفاً بعض الشيء كأن تكون امرأة نوح لازالت على قيد الحياة وهي (وليس هو) من تركت زوجها وبالتالي لم تعد بمحض إرادتها من أهل بيته، فكانت من المغرقين ولم يكن هناك داع لذكرها. فنرد بالقول: لربما يكون هذا افتراض أكثر وجاهة من سابقه، ولكننا ندحضه لسبب بسيط وهو: لو كانت هي من تركت زوجها لأنها آثرت خيانته، لما كانت ستترك ولدها،أليس كذلك؟ فحتى لو آثرت أنْ لا تركب السفينة مع زوجها لربما آثرت أنْ تبقى مع ولدها، فالزوج من جهة والزوجة وولدها من جهة أخرى، وحتى لو افترضنا أنها لم ترغب أنْ تكون مع ولدها، فهل كان الولد سيترك أمه كما ترك أباه؟! لقد آثر الولد أنْ لا يصاحب والده لأنه كان على طرف نقيض مع والده من الناحية الإيمانية، ولكن ما الداعي أنْ يترك والدته في مثل ذلك الظرف وهو (كما هي) على طرفي نقيض مع والده، ألم يكن ذلك الطوفان سيجمعهم في صف واحد ضد الأب الذي اختاروا ألا يصاحبوه؟!

وأخيراً لنتذكر أنّ نوحاً قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما:

- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: 14-15]

ولعلنا نتفق أنّ الطوفان قد حصل على أقل تقدير في سنته الخمسين بعد التسعمائة، والسؤال البسيط هو: هل ذكر القرآن الكريم كم لبث نبي في قومه عدد سنين سوى نوح؟ وإذا كان الجواب بالنفي قطعاً، فلم يذكر نوح على وجه الخصوص؟ إننا نعتقد – كما يظن الجميع- أنّ الجواب هو لأنّ نوحاً عاش في قومه فترة زمنية طويلة جداً مقارنة بفترة الأنبياء الآخرين ومقارنة بالأفراد من قومه، أي لقد كان نوح نبياً معمّرا، ولقد ذُكِر ذلك في كتاب الله، ففترة ما يقرب من الألف سنة تعني أنّ الشخص كان من المعمرين، قال تعالى:

- ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: 96]

وهذا يعني بأبسط معانيه أنّ نوحاً كان شخصا معمراً في قومه، فحتى لو افترضنا أنّ نوحاً كان يعيش بين أقوام يعمروا طويلاً فهذا لا ينفي أنْ يكون نوح من أكثرهم تعميراً، فهو قد قارب من الألف سنة، وإلاّ لما جاء ذكر عمره كدليل على طول الفترة التي قضاها نوح في الدعوة إلى الله بين قومه، وإنْ صحَّ هذا الافتراض، فإننا نخلص إلى نتيجة مفادها أنه في السنة الألف إلا الخمسين عاماً التي قضاها نوح بين ظهراني قومه يستحيل أنْ تكون زوجته لازالت على قيد الحياة وإلاّ لانتفى أنّ يكون نوح من المعمرين بين قومه.

ولنتذكر كذلك أنّ القرآن الكريم لا يذكر أنّ نوحاً قد تزوج بأخرى، وإلاّ لما ضربت زوجته مثلاً للذين كفروا لانّ الإبهام كان سيطغى على المعنى وعندها لا نعلم أي زوجة كانت مثال الكفر. فإذا كانت زوجته هي التي صاحبته منذ شبابه فلا يمكن أنْ تكون قد عمّرت كزوجها (أي قاربت الآلف سنة إلا خمسين عاما).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نخلص إلى القول أن السيناريو الرابع المتمثل في وفاة زوجة نوح بالموت هو الاحتمال الذي يمكن أن يكون أكثر وجاهة في تصوير مصير المرأة.

أين كان يعيش نوح عليه السلام؟

لقد ذكرنا أنّ مجتمع نوح عليه السلام كان مجتمعاً زراعياً من الطراز الأول، فلم تكن تجبى إليه الثمرات من كان آخر، لا بل لقد كانت الثمرات متوافرة في المكان نفسه، ولقد كان المكان تكثر فيه الجبال الشاهقة التي ظن القوم أنها يمكن أن تنقذهم من عقاب الله:

- ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: 43]

والمكان غزير المطر بطبيعته:

- ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح: 11]

والمكان يتوافر فيه الرزق الكثير:

- ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح: 12]

ونسبة السكان مرتفعة فيه:

- ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح: 12]

وتكثر فيه الجنات من الثمار والزروع:

- ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح: 12]

يكثر في المكان نفسه الأنهار العديدة:

- ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح: 12]

وبالإضافة إلى الجبال فهناك الطرق الواسعة التي تفضي إلى الأرض الواسعة الفسيحة، فنوح قد ذكر قومه بنعم الله التالية على قومه:

- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح: 19-20]

ولا ننسى أنّ الأرض المنبسطة الفسيحة لا يمكن أنْ تثبت دونما وجود الجبال التي تعمل عمل الرواسي:

- ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١﴾ [الأنبياء: 31]

فالأرض الواسعة التي جعلها الله بساطاً لقوم نوح كانت الجبال الرواسي تثبتها، وسؤالنا هنا يكون على النحو التالي: كيف نفهم أنّ ولد نوح يقول أنه سينجو من الطوفان لأنّه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء وفي الوقت ذاته يخاطب نوح قومه على أنّ الله قد منّ عليهم أنْ جعل لهم الأرض بساطا؟

رأينا: إننا نعتقد أنّ الإجابة غاية في البساطة، فهم إذاً كانوا – في ظننا- يسكنون المنطقة التي تتلاقى فيها الجبال الشاهقة مع الأرض المنبسطة، ولا شك أنّ وسيلة التنقل بين المنطقة الجبلية والمنطقة المنبسطة كانت "سُبُلًا فِجَاجًا"، أي الطرق الفسيحة، وهذا يتأكد بقوله تعالى الذي يبين أنّ الأرض إذا كانت واسعة منبسطة فلابد من وجود الجبال "الرواسي" التي تثبتها:

- ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥﴾ [النحل: 15]

وهي الأرض ذاتها التي وصفها الله بقوله تعالى:

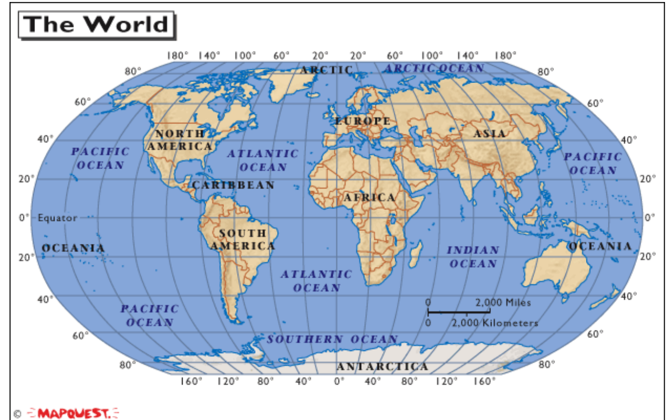
- ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الرعد: 3]

وهذا يقودنا إلى السؤال الحتمي التالي: أين حدث طوفان نوح؟

أين حدث الطوفان؟

بداية لابد أن نشير إلى القارئ الكريم موقفنا العقائدي فيما يخص هذا السؤال والذي مفاده: أن من الاستحالة بمكان أن تكون أرض العرب أو ما يجاورها هي موطن نوح وقومه أو أن تكون مسرحاً لطوفان نوح وذلك لأن المنطقة تخلو من الجبال التي تحدث عنها ابن نوح، وتخلو من الأنهار والجنات والقوة السكانية التي تحدث عنها نوح نفسه، وتخلو من المادة الخام اللازمة لبناء سفينة عملاقة بحجم سفينة نوح، وهكذا. فأين - يا ترى- حدث الطوفان؟

لكي نصل إلى إجابة شافية على هذا السؤال، فلا بد من البحث في مناطق الأرض التي يمكن أنْ تتوافر فيها هذه الظروف السابقة مجتمعة، ولنبدأ بالافتراض التالي: لا شك أنّ ما يسمى العالم الجديد "أمريكيا الشمالية وأمريكيا الجنوبية واستراليا" والقارة المتجمدة الجنوبية تستثنى جميعا من البحث وذلك لأنّ الرسالات السماوية نزلت جميعها في فترات كانت هذه القارات غير مأهولة بالكثافة التي تستدعي نزول الرسالات السماوية خصوصاً إذا ما تحدثنا عن رسالات أولي العزم من الرسل (ونوح بلا شك كان واحد منهم). وباستعراض خارطة العالم ينحصر البحث في القارات الثلاث: أسيا وإفريقيا وأوروبا كما في الخريطة التالية:



وإذا ما افترضنا أنّ هجرات الناس إلى أوروبا بدأت متأخرة بعض الشيء، ينحصر البحث قليلاً، ولا نظن كذلك بأنّ الأجزاء الشمالية من آسيا كانت مأهولة بشكل كبير وذلك لقسوة المناخ، فدرجات الحرارية تصل إلى حد يصعب التكيف معها في ظل الظروف البدائية لنشأة الحضارات، وبالتالي ينحصر البحث في الأجزاء الوسطى والجنوبية من آسيا وقارة إفريقيا كما في الشكل التالي:



أما بالنسبة لأفريقيا ومنطقة الجزيرة العربية وبلاد الشام فنحن نظن أنها لم تكن موطن نوح وقومه لسببين:

⇐ **أولهما**، لعدم توافر الشروط التي ذكرنا بعضها سابقاً فيها، فـ باستعراض تلك الأماكن واحدة بعد الأخرى ينعدم فيها وجود السهول الممتدة التي تتلاقى مع الجبال الشاهقة، وغزارة الأمطار ووفرة الأنهار وكثرة السكان وكثرة الجنات، ونحن ندعو القارئ إلى تصفح جغرافية تلك المناطق من المصادر الموثقة.

⇐ **ثانياً**، ولكن القارئ قد يبقى غير متيقن من صدق ما ندعي فندعوه إلى الدليل من القرآن الكريم الذي نظن أنه دامغ في استحالة أنّ تكون هذه المناطق الموطن الأصلي لنوح وقومه.

أما بعد،

قال تعالى في أوائل سورة الإسراء عند الحديث عن بني إسرائيل:

- ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: 2-3]

فبني إسرائيل هم (بنص الآية السابقة) من ذرية نوح بلا شك، وإذا افترضنا (مخطئين بالطبع) أن بني إسرائيل هم من ذرية إسرائيل وهو بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، الذي انتقل وذريته جميعاً إلى أرض مصر يوم أنْ كان يوسف بن يعقوب عليهم السلام عزيز مصر:

- ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٣﴾ [يوسف: 93]

فخر له إخوته جميعاً بعد أنْ رفع أبويه على العرش:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: 100]

إذاً لقد انتقل يعقوب وذريته من الأرض التي باركنا فيها شرقاً إلى مصر غرباً، ولا شك أنّ الجميع يدرك أنّ إبراهيم نفسه قد هاجر أيضاً إلى الغرب من الشرق، لقد هاجر إلى الأرض المقدسة من أرض العراق:

- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٦﴾ [العنكبوت: 26]
- ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنبياء: 71]

فبالإضافة إلى الأرض المقدسة:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

فقد أسكن إبراهيم من ذريته في جزيرة العرب عند البيت المحرم:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

فإذا كانت ذرية إبراهيم بأكملها هي من ذرية نوح كما ترد في آية الإسراء (ولنوردها مرة أخرى لتأكيد الفكرة):

- ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: 2-3]

لا بل وتتأكد الفكرة نفسها أكثر بقوله تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران: 33-34]

فيكون خط الذرية على النحو التالي:

آدم ← نوح ← آل إبراهيم ← آل عمران

وإذا كانت الهجرة جاءت من الشرق إلى الغرب، فيستحيل بذلك أنْ يكون موطن نوح وقومه قد تجاوز موطن إبراهيم نفسه، لذا فإن منطقة بحثنا تنحصر إلى الشرق من أرض العراق (بلاد ما وراء النهرين).

ولابد من أن ندرك أيضاً أن الهجرة كانت من سنن المؤمنين الذين كانوا على الدوام مستضعفين في أقوامهم:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾ [النساء: 97-98]
- ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾ [النساء: 100]

وإذا كانت الهجرة سبيل المستضعفين في الأرض (وهم المؤمنون) الذين أوذوا في بلادهم، فلا شك أنّ الأمم المستضعفة التي نجت مع نوح قد هاجرت هي أيضاً إلى الغرب من الشرق، ومما لا شك فيه أنّ رحلة استعمار الأرض بأكملها قد حصلت بالانتقال من الشرق إلى الغرب، فاستعمار أوروبا نفسها بدأت

بهجرات من الشرق وبشكل محدد من الهند وإيران لذا نشأت أوروبا من أصول هندية (Indo-European)، واستعمار الأمريكيتين قد جاءت أيضاً من الشرق، وهكذا.

فتكون منطقة بحثنا عن موطن نوح الأصلي تنحصر في المناطق التي تظهر في الخريطة التالية إلى الشرق من أرض العراق:



وفي هذه المنطقة تبدأ سلسلة الجبال العملاقة والسهول الواسعة تبدأ بالظهور.

ولكن لنتوقف هنا لطرح فكرة أخرى قد تسعف في تحديد المكان بدقة أكثر، لقد قال الله في كتابه العزيز:

- ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: 24]

فلقد كان نوح نذير في قومه:

- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥﴾ [هود: 25]

فما الحاجة إلى إرسال نذير آخر (كإبراهيم مثلاً) إذا كان الله قد أرسل لهم نوحاً؟ فمراد القول أنّ نوحاً قد كان نذيراً في غير موطن إبراهيم، فالقوم الذين جاءهم نذير لا يحتاجوا إلى نذير آخر، وإن صح هذا الافتراض يكون نوح قد جاء نذيراً لقوم آخرين وهم من كان يسكن في المنطقة التي تقع إلى الشرق من منطقة قوم إبراهيم. وهنا قد يرد البعض إلى أنّ الأمة الواحدة ربما تكررت بها الرسالات مثل بني إسرائيل على سبيل المثال لا الحصر، فما المانع أن يكون نوح قد جاء نذيراً لنفس القوم الذين بُعِثَ فيهم إبراهيم مثلاً؟ فنرد على ذلك بآية من كتاب الله:

- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣﴾ [السجدة: 3]

- ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤﴾ [سبأ: 44]

وسؤالنا هنا على النحو التالي: كيف يقول الله لنبيه محمد أنه أرسل إلى قوم ما جاءهم من قبله من نذير وهو يسكن البيت المحرم الذي أسكن فيه إبراهيم من ذريته ونقصد نبي الله إسماعيل على وجه الخصوص؟

ألم يكن إذاً إبراهيم وإسماعيل (وهم الذين رفعوا القواعد من البيت) منذرين لمن سكن تلك الديار؟

راقب الدقة اللفظية في قوله تعالى عند الحديث عن إسماعيل عليه السلام:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم: 54-55]

للإجابة على هذا التساؤل لا بد من التوقف عند فكرة لربما تسعف في الخروج بما قد يظن البض أنه نوع من التناقض، قال تعالى:

- ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]
- ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾ [البقرة: 140]

فهذه الآيات تدل على أنّ رسالة هؤلاء الرسل جميعاً هي رسالة إبراهيم عليه السلام، فإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط هم جميعاً جاءوا برسالة واحدة وهي رسالة إبراهيم عليه السلام، وهم بالتأكيد ليسوا هوداً ولا نصارى، فاليهودية ظهرت بعد مبعث موسى عليه السلام وظهرت المسيحية بعد مبعث عيسى عليه السلام ولكن الإسلام لم يظهر بمبعث خاتم النبيين محمد عليه (وعليهم أجمعين) أفضل الصلاة وأتم السلام، وذلك لأن الدين عند الله الإسلام أصلاً:

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]

ونسأل هنا عن العلاقة بين هؤلاء الرسل الأربعة: إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد.

رأينا: لاشك أن هؤلاء الرسل هم أصحاب الرسالات السماوية التي تجلت عنها الأديان المعروفة، وهؤلاء هم أولوا العزم من الرسل، ولكن يستدركنا القارئ بالقول "ولكنك نسيتَ واحداً منهم وهو نوح عليه السلام، فهو واحد من أولى العزم من الرسل، فنقول هذا ما نبغي الوصول إليه: لقد كان نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد أولى العزم من الرسل لأنهم هم من حملوا الرسالات التي تمخضت عنها ديانات أهل الأرض السماوية جميعاً:

- ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: 35]
- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: 7]
- ﴿* شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: 13]

وباستعراض الخريطة مرة أخرى يتبين أنّ المنطقة التالية (وهي أرض وادي النيل) كانت مهد الديانة اليهودية:



والمنطقة المجاورة (وهي بلاد الشام) مهد المسيحية التي بشر بها عيسى عليه السلام:





والمنطقة التالية (جزيرة العرب) هي مهد ديانة الإسلام التي جاء بها محمد عليه السلام:



والمنطقة التالية (بلاد فارس والعراق) مهد حنفية إبراهيم عليه السلام:



ويبقى السؤال المثير التالي: فأين كان مهد ديانة أول أولى العزم من الرسل (نوح عليه السلام)؟

رأينا: إننا بحاجة أنْ نبحث عن المنطقة التي بحثنا في جغرافيتها سابقاً فيما وراء تلك المناطق، ولنستعرض خريطة قارة آسيا مرة أخرى



لنجد أنّ منطقة شبه القارة الهندية بسهولها الممتدة وجبالها الشاهقة جداً وأنهارها الكثيفة هي المؤهلة للبحث فيها عن موطن نوح عليه السلام.

افتراء خطير من عند أنفسنا: نحن نظن أن سبه القارة الهندية هي موطن رسالة نوح عليه السلام

الدليل

قبل الدخول إلى جغرافية تلك المنطقة للبحث فيها والتأكد من صحة الافتراض الذي نطرحه، نجد أنّ من الضروري التعرض للآيات القرآنية التالية:

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87]
- ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98]

ومرادنا هو القول أنّ يونس كان من المرسلين، وهو حلقة الوصل بين نوح وإبراهيم، فكان عليه إذاً إبلاغ من لم يبلّغوا برسالات سابقة، فإذا كان إبراهيم قد أرسل إلى من كان يسكن بلاد ما بين النهرين، يكون ذا النون قد أرسل إلى من كانوا يسكنون أرض ما وراء بلاد ما بين النهرين ولكن في الوقت ذاته ليس القوم الذين أرسل إليهم نوح، فقوم ذي النون إذاً يسكنون المنطقة التي تقع بين منطقة سكن قوم نوح وقوم إبراهيم، ومما لا شك فيه عندنا أنّ تلك المنطقة كانت غزيرة بالسكان، وهي كذلك بلاد تقع على أجسام مائية كبيرة، فـ ذا النون ركب البحر والتقمه الحوت – ولا أظن أن الحيتان التي بالحجم الذي يمكنها من أنْ تبتلع إنسان ليعيش في جوفها يمكن أن تتواجد على اليابسة أو حتى في الأنهار! وحتى لو افترضنا أنّ ذا النون كان يركب الفلك المشحون في نهر من الأنهار لما كان بحاجة أنْ يساهم، لأنه كان يستطيع النزول منه وقطع مياه النهر سباحة، فلا يوجد في المنطقة بأكملها أنهار عريضة جداً يصعب على الإنسان الانتقال من طرف إلى طرفها الآخر سباحة، قال تعالى:

- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ
ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤٤ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ
وَهُوَ سَقِيمٌ ١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟
فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ١٤٨﴾ [الصافات: 139-148]

إنّ مراد القول أنّ منطقة سكن قوم ذا النون هي المنطقة التي تقع بين منطقة سكن قوم نوح (بلاد الهند) ومنطقة سكن قوم إبراهيم (بلاد ما بين النهرين)، ولنستعرض الخريطة لنرى بأم أعيننا:



فيتضح أنّ المنطقة الواقعة (إلى الجنوب والشرق) من إيران وتلك (إلى الشرق من الهند –أي جنوب باكستان) هي الأرض الواقعة على مسطحات مائية يمكن أن تحمل الفلك المشحون، وهي الجزء القريب من المسطحات المائية التي يمكن أنْ تعيش فيها كائنات بحرية بحجم الحيتان، ولنرقب الدقة اللفظية في القرآن الكريم في هذا السياق، فلقد ركب يونس "**ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ**"، ولم يركب "الفلك" فقط، والسؤال هو: لماذا "المشحون"؟ فحتى لا نتجادل فإننا نكتفي أنْ نقول هو الفلك الذي يستخدم في الشحن، أي الذي يمكن تحميله بالناس والأمتعة بغية الانتقال من منطقة إلى أخرى، وهنا ندعو القارئ إلى النظر في الخريطة إلى المسطح المائي الذي يقع بين أقصى شرق شبه القارة الهندية وأقصى غرب وجنوب الجزيرة العربية (عُمان وحضرموت)، أليست تلك طريق التجارة البحرية بين الشرق والغرب آنذاك)؟

الدليل الديني

لقد تردد في ذهن العامة ولربما عجز الخاصة عن إيجاد الجواب الوافي لتساؤل مفاده: لماذا يتكرر في القرآن الكريم ذكر الأنبياء الذين عاشوا في منطقة الشرق الأوسط؟ فهل نزلت الرسالات السماوية فقط لمن يقطنون جزيرة العرب وأكناف جزيرة العرب؟ لقد ذهب الكثيرون إلى حد القول أنّ آدم نفسه قد سكن جزيرة العرب! كلا وألف كلا، إنّ هذا القول فيه من حب الذات الشوفانية التي تغطي حتى أبسط الحقائق، والأهم من ذلك أنه يعارض صريح النصوص الدينية، قال تعالى:

- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤﴾ [فاطر: 24]

- ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ [النحل: 36]
- ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15]

وسؤالنا هو: أين إذاً رسل أولئك الأمم؟ وهل بكتاب عظيم كالقرآن الكريم يمكن أن يغفل عن مثل هذا التساؤل الكبير؟ إنّ مثلنا في فهم كتاب الله كمثل أصحاب الكتاب المقدس الذين تغنوا صباحاً ومساءاً بنبؤات الكتاب المقدس - كقيام الثورة البلشفية والحرب العالمية الأولى والثانية وحتى كوميديا دانتي الإلهية!- وعندما تسألهم عن ما في كتابهم من نبوءات عن محمد والإسلام يردوا على الفور بالقول: "لا شي"، بالله كيف يتنبأ كتابهم حتى بأدق التفاصيل ولا يذكر – حتى على سبيل الصدفة- عن رسالة غيرت وجه الكرة الأرضية بأكملها؟ أليست تلك هي الشوفانية التي لا تعمي الأبصار وإنما تعمي القلوب التي في الصدور؟ وبالمنطق نفسه، كيف يمكن لقرآننا أن يقص بالتفصيل قصص قرية صغيرة كقوم لوط أو شعيب ويغفل عن ذكر حضارات عريقة كحضارة الصين والهند وبلاد فارس؟!

إنّ طرحنا هذا يفسر الحقيقة القرآنية بأننا لسنا مركز الكون أو أن غيرنا لا شيء، إننا كغيرنا من الناس حصلنا على رسالة السماء كما حصلوا هم عليها من قبلنا، وما حصلنا عليها إلا يوم أنْ جاء دورنا، لا بل ولنقرأ في كتاب الله ما يثبت بما لا يدع مجالاً للشك تفوق تلك الأمم علينا:

- ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩﴾ [التوبة: 69]
- ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الروم: 9]
- ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾ [فاطر: 44]

ولنتدبر الربط القرآني بين تفوق الأمم الأخرى علينا في عمارة الأرض، ورسالات الأنبياء السابقين:

- ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ

أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠ [التوبة: 69-70]

ولنتدبر الحديث النبوي التالي في ظلّ الطرح الذي نقدمه هنا:

حدثنا محمد بن سنان حدثنا سليم بن حيان حدثنا سعيد بن ميناء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال، قال النبي صلى الله عليه وسلم مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللبنة

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين صحيح البخاري

ولنعد إلى الخريطة الجغرافية السابقة ونتأملها لنجد العجب في قوله صلى الله عليه وسلم، فكثيراً ما قرأت مثل هذه الأحاديث لتبين تمام الرسالة الدينية برسالة الإسلام، ولكن لا ننسى أنّ الإسلام كان هو دين الله الحق يوم أن خلق البشرية، وما نود طرحه هو فهم هذا الحديث على الحقيقة، أي مهد رسالة الإسلامي الجغرافي مقارنة مع مهد الرسالات السماوية السابقة:



ألا ترى عزيزي القاري كيف كان مهد رسالة الإسلام (جزيرة العرب) لبنة من زاوية (للعالم القديم) احتاجت لرسالة سماوية حتى اكتمل البناء كله؟

الدليل الجغرافي والطوبوغرافي

إنّ تصفح خريطة العالم القديم في ضوء الطرح الذي نقدمه هنا يبين لنا كيف اكتمل البناء برسالة الإسلام، لقد كانت منطقة جزيرة العرب هي الجزء الأخير الذي لم ترسل له رسالة سماوية بعد على غرار الأمم والأقوام السابقين، ولنتتبع ذلك ابتداءً من نوح في شبه القارة الهندية، وإلى الشرق يأتي ذا النون ومن بعده إبراهيم شرقاً إلى بلاد ما بين النهرين ومن ثم موسى في أرض مصر وعيسى في بلاد الشام وأخيراً محمد

في بلاد الجزيرة العربية، وهذه هي الرسالات السماوية الرئيسية التي استمرت وتمخضت عنها ديانات أهل الأرض، أما عن كثرة ذكر الرسل الآخرين الذين معظمهم من ذرية بني إسرائيل فهم من باب قوله تعالى:

- ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: 164-165]
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [غافر: 78]

ولنتدبر قوله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: 9]
- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: 82]

وقد يتساءل البعض عن سبب أنّ رسالة موسى جاءت لأرض مصر وجاءت بعدها رسالة عيسى في بلاد الشام؟ إي لما جاءت الرسالة الأولى إلى الغرب ومن ثم عادت الرسالة غرباً (عكس خط سير الرسالة الطبيعي) مع عيسى عليه السلام، فنرد على ذلك بالآية القرآنية التالية:

ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم

وهذا يعني أنّ رسالة عيسى بن مريم هي مكملة لرسالة موسى عليه السلام، فيكون التوزيع الجغرافي للرسالات السماوية على النحو التالي:

محمد	لمنطقة الجزيرة العربية
موسى وعيسى	لمنطقة الشرق الأوسط
إبراهيم	لأرض العراق وفارس وجنوب شرق أسيا الصغرى
نوح	لشبه القارة الهندية

وربما يسعفنا النظر في التوزيع السكاني على وجه المعمورة في إثارة التساؤل التالي: لِمَ لا يذكر القرآن الكريم عن شعوب الصين والهند الذين يتفوقون على جميع أهل الكرة الأرضية بالتاريخ والحضارة والعدد؟ ألا تتفوق تلك الشعوب على غيرها بالعدد " **أَكْثَرَ مِنْهُمْ**" وبالقوة " **أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً**" وكثرة أثارهم " **وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ**"؟ ألم يعمروا الأرض أكثر من غيرهم "**وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا**"؟ فأين إذاً رسلهم "**وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ**"؟

ربما يحل مثل طرحنا هنا الإشكال برمته، فنحن نفترض أن الرسالة السماوية قد بدأت بنوح من تلك المنطقة:

- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: 17]

ثم أخذت تنتقل بالتدريج إلى الشرق مع رحلة البشرية في استيطان العالم القديم حتى ختمت بالرسالة المحمدية في أرض الجزيرة العربية، فإذا أخذنا رسالات أولي العزم من الرسل على أنها هي الرسالات الرئيسة تكون كل أمة قد أتاها نذيرها وما جاءت رسالتان لأمة واحدة، وقد كانت الرسالة الأقدم للأمة الأبعد إلى الشرق حيث بدأت الحضارة منها، وما كان بقية الرسل الذين قصهم الله في الكتاب مثل "يونس ولوط وشعيب، الخ، إلا مكملين للرسالات الرئيسية، فجميع رسل بني إسرائيل جاءوا ينشروا رسالة جدهم إبراهيم حتى بعث الله موسى لفرعون وقومه، وكانت تلك رسالة من جاء بعد موسى (كرسالة داوود وولده سليمان و زكريا وولده يحيى) حتى جاءت رسالة عيسى عليه السلام وبقيت مسيطرة حتى جاءت رسالة الإسلام، وباستخدام المنطق نفسه يكون جميع الرسل الذين جاءوا بعد نوح قد نشروا رسالته حتى جاءت رسالة إبراهيم عليه السلام. وهكذا كان الحال بعد إبراهيم حتى جاء موسى، وبقي كل أنبياء الله يدعون بدعوة موسى حتى جاء المسيح عيسى بن مريم، وأخيراً كانت الرسالة الخاتمة.

وباستعراض الخارطة الدينية في شبه القارة الهندية نجد أنها من أغنى مناطق العالم بالتراث الديني، والسؤال يكون على النحو التالي: من أين جاء ذلك التراث؟ هل يا ترى جاء كله من نسج الخرافات والأساطير؟ وحتى إنْ كان كذلك، فنحن نعلم أنّ الأساطير هي مصاحبة للفكر الديني عندما يصاب بالتحريف والتبديل، ونحن لا نعتقد بأنّ التاريخ والتراث الديني لأهل شبه القارة الهندية مستثنى من القاعدة، فهو فكر ديني كان في فترة ما ربانياً صحيحاً يدعو بدعوة الرسل جميعاً بالتوحيد "**وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ**" ثم أصابه ما أصاب غيره من التحريف والتبديل حتى ظل الطريق "**فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**"، وقد أوغر بالانحراف لقدمه بالتاريخ البعيد حتى أصبح أقرب إلى الفلسفة منه إلى العقيدة الدينية.

وهنا قد يبادرنا البعض بالسؤال عن الصين وهي حضارة أعرق بتاريخها وثقافتها ولربما عقائدها من تلك التي في شبه القارة الهندية، فنرد على ذلك بجواب مختصر بسيط لا نريد الخوض في تفاصيله هنا لأنه ينقلنا إلى منطقة بحث جديدة، إنّ جوابنا هو: طبق نفس المنطق السابق وستجد الإجابة فوراً، إنّ رحلة البشرية بدأت من الشرق باتجاه الغرب وهذا يعني بأنّ أرض الصين قد شهدت الحضارة الأولى وبالتالي الرسالة الدينية قبل أرض الهند، وهذا يعني أنّ الرسالات الدينية (إن وجدت) بدأت من هناك، ولكن السؤال هو: ما هي الرسالات التي بدأت هناك؟ إنها رسالات الأنبياء الذين جاءوا قبل نوح، وأظن إنها رسالة إدريس عليه السلام التي كانت امتداداً برأينا لرسالة والده آدم، فوالد البشرية بأسرها آدم عليه السلام قد بدأت البشرية (ومنها الرسالة الدينية والحضارية) من تلك الأرض وأخذ الناس (وخصوصاً المستضعفون من الناس) بالهجرة إلى الشرق حيث تسمح الظروف البيئية والمناخية التي تساعد على نشوء الحضارة، فانتشرت شرقاً إلى أرض نوح وذا النون ومن ثم إلى بلاد إبراهيم فموسى فعيسى وأخيراً محمد عليه وعليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم السلام. ولكن يبقى هذا افتراض في بداية الطريق يحتاج إلى بحث معمق يستند إلى الدليل العقائدي المستنبط من كتاب الله، وهذا ما سنحاول الخوض فيه في مقالات قادمة بحول الله وتوفيقه، لذا فالله أسأل أن يأذن لي بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع العليم.

دحض الافتراض بالدليل العلمي:

يمكن دحض الافتراض الذي نقدمه (وهو أن شبه القارة الهندية كانت موطن نوح وبالتالي مسرح الطوفان) بالطرق العلمية البسيطة التالية التي يمكن للشخص العادي التحقق منها بنفسه، ولكن إنْ لم يتم دحض هذا الافتراض فإن الأدلة نفسها تدلل على صدق ما نظن وندعي:

⇐ أولاً، إننا نفترض أنّ حصول الطوفان سيترتب عليه تكون طبقة من الرسوبيات الطينية، وكلما ازدادت ضخامة الطوفان كلما زادت سماكة الرسوبيات الطينية، لذا فإننا نتنبأ أنه إذا كان الطوفان قد حصل في منطقة شبه القارة الهندية فلا شك أنها ستحتوي على رسوبيات بأعماق هائلة، وعدم وجود مثل هذه الرسوبيات في منطقة جغرافية يعني عدم حصول طوفان من هذا الحجم فيها.

⇐ إن وصول الماء إلى أعالي الجبال يعني وجود مخلفات على أعالي تلك الجبال من تلك البحار، فلابد من وجود مخلفات من أنواع الأسماك والأعشاب البحرية على قمم تلك الجبال من أصول بحرية، وهنا ندعو إلى إجراء مثل تلك الأبحاث على رؤوس وقمم الجبال، فالجبال التي تتواجد على قممها مخلفات بحرية تستدعي تفسيراً لذلك. ونحن نتنبأ وجود المخلفات البحرية الكثيرة جداً على أعالي الجبال المحيطة بشبه القارة الهندية.

⇐ أنّ وصول مياه المحيطات والبحار والأمطار إلى أعالي الجبال يؤدي بالضرورة إلى تكون مصائد مائية في أعالي قمم السلاسل الجبلية على شكل أحواض وبحيرات، ولكن يمكن أن تتكون مثل هذه المصائد بفعل مياه الأمطار، فما الغريب في ذلك؟ (ربما يظن البعض) نقول نعم ذلك ممكن، ولكن كيف يمكن أنْ نفسر أنّ مثل هذه المصائد المائية –كما نظن ونزعم- فيها نسبة عالية من الملوحة؟ إنّ مياه الأمطار – كما يعلم الجميع- قليلة الملوحة بلا شك، ولكنّ مياه المحيطات والبحار عالية الملوحة، فارتفاع مياه البحار والمحيطات حتى أعالي الجبال سيترتب عليه تكون تلك المصائد التي على شكل بحيرات من مياه جزءاً منه مالح وذلك بسبب أنها من أصول بحرية كما أنّ جزءاً منها من أصول مطرية. فنحن ندعو إلى دراسة درجة الملوحة في المصائد المائية الموجودة في أعالي السلاسل الجبلية على وجه المعمورة، لذا فإننا نتنبأ أيضاً أنّ أعالي السلاسل الجبلية المحيطة بشبه القارة الهندية (كسلاسل الهملايا مثلاً) ستكون غنية بمثل هذه المصائد المائية عالية الملوحة.

افتراء خطير جداً من عند أنفسنا: وسنناقش في مقالة أخرى بحول الله وتوفيق منه (إن أذن لنا بشيء من علمه) ظننا المزعوم بأن نوح عليه السلام هو بوذا نفسه المعروف في ديانات أهل الهند خاصة البوذية.

ما قبل الخلق

وهنا نتوقف مرة أخرى لإلقاء نظرة متفحصة لخريطة العالم القديم في ظل الآية القرآنية التالية:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود: 7]

وقبل أنْ يتسرع القارئ برفض الفكرة الغريبة التالية فلابد من توضيح بعض الحقائق:

⇐ **أولاً**، إنّ العرش هو خلق من خلق الله، وهو ليس جزء من الذات الإلهية
⇐ **ثانياً**، إن الملائكة هم خلق من خلق الله كذلك
⇐ **ثالثاً**، إنّ الناس هم خلق من خلق الله
⇐ **رابعاً**، إنّ الأرض خلق من خلق الله

والحالة كذلك فلا ضير في الحديث عن هذه الأمور ضمن التصور البشري الذي لا يستطيع الإحاطة بالذات الإلهية، ولكنّه قد يحيط بمخلوقات الله، وبهذا التصور كيف يمكن فهم الآية القرآنية التي تؤكد أنّ عرشه كان على الماء، فأين الماء الذي كان عرشه عليه؟ لربما يكون الجواب الجاهز لدى الكثيرين أنّ ذلك الماء ليس على سطح الكرة الأرضية لأنّ الأرض لا تستطيع أنْ تتحمل العرش على سطحها، فالماء الذي كان العرش عليه لابد أنه في مكان آخر، ولكننا نرفض هذا التصور لعدة أسباب:

⇐ **أولا**، ما دام أن العرش كان على الماء فما الفرق أنْ يكون ذلك الماء على سطح الكرة الأرضية أو على غيرها؟ فما على الأرض هو مخلوق من مخلوقات الله كما أنّ الأشياء في أي مكان آخر هي خلق من خلق الله، لا بل لقد اختار الله الأرض على جميع خلقه لتكون هي موطن خليفته عليها:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

⇐ **ثانياً**، يذكر القرآن الكريم أنّ الخلق بدأ من الأرض أصلاً:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: 29]

⇐ **ثالثاً**، لقد استمر خلق الأرض وما فيها فترة من الزمن حتى قبل الاستواء إلى السماء، قال تعالى:

- ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: 11-9]

⇐ **رابعاً**، يصور القرآن الكريم الموقف يوم القيامة على النحو التالي:

- ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: 75]

فالملائكة في يوم القيامة سيكونون ملتفين بالقرب من العرش، والسؤال البسيط هو: أين سيكون ذلك العرش الذي سيحف به الملائكة؟ فهل سيكون في مكان غير الأرض؟ وماذا لو استطعنا أنْ نثبت أنّ ذلك الموقف سيكون على الأرض؟ فهل سيقتنع القارئ عندها أنّ العرش الذي كان على الماء كان أصلاً على سطح الكرة الأرضية؟ وإن صح هذا الافتراض فإننا بحاجة أنْ نحاول البحث عن المسطح المائي الذي كان العرش عليه، ولكن قبل الوصول إلى هذا الهدف لابد من التأكيد على الفكرة التالية: إننا عندما نقرأ قوله تعالى "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء" لا تعني بالضرورة ملامسة العرش لسطح الماء ف "على" كما تفيد

الملامسة تفيد كذلك الارتفاع دون الملامسة المباشرة، ولقد تعرضنا سابقاً لمعنى قوله تعالى "وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ (هود 38) "، فالقوم كانوا يمرون عليه من على ارتفاع، فهي لا تعني المرور عليه من على ظهره بالملامسة، وبالتالي فقوله تعالى " وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء" تعني أنّ العرش كان مرتفعاً (مشرفاً مطلاً، الخ.) فوق سطح الماء وليس بالضرورة على سطح الماء مباشرة.

وبهذا فإننا بحاجة أنْ نعود للبحث عن المسطح المائي على سطح الكرة الأرضية الذي كان العرش عليه، ولكن البعض يبادر بالقول "ولكننا لازلنا غير مقتنعين بأنّ العرش كان على مسطح مائي على وجه الكرة الأرضية". فنرد عليه بالقول ولكن هل اقتنعت من الآية السابقة أنّ الملائكة يوم القيامة سيكونون حافين من حول العرش؟

- "نعم بكل تأكيد، فالملائكة سيكونون كذلك ولكن ما علاقة ذلك بالافتراض الذي تقدمه؟

جواب: نحن نظن أنّ العلاقة فقط هي أنْ نحاول أنْ نبحث عن المكان الذي سيحصل فيه ذلك الموقف. أي أين سيكون ذلك الموقف حيث الملائكة تكون حافة من حول العرش؟ فهل سيكون الملائكة حافين من حول العرش يوم القيامة على سطح الكرة الأرضية؟ فإنْ كان كذلك، فما العجب أن يكون العرش قد تواجد أصلاً على سطح الكرة الأرضية؟

ولكن يرد صاحبنا بالقول ولكن هل فعلاً سيكون الملائكة يوم القيامة حافين حول العرش وسيكون ذلك الموقف على وجه الكرة الأرضية؟

رأينا: نقول بكل تأكيد ذلك هو الموقف، وإن كنت لا زلت غير مقتنع بذلك، فندعوك لتربط تلك الآية التي يكون فيها الملائكة حافين من حول العرش مع قوله تعالى في سورة الزمر:

- ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾ [الزمر: 68-70]

ألا يعني ذلك أنّ القضاء بين الناس بالحق "وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ" سيكون على وجه الأرض؟ وعندها ألا تكون الأرض تشرق بنور ربها في يوم القضاء بالحق؟ فكيف ستشرق الأرض بنور ربها إنْ لم يكن العرش والملائكة الحافين من حوله متواجدين هناك؟ ولنعيد الآية نفسها ليتأكد القارئ أنّ ذلك هو يوم القضاء بين الناس بالحق:

- ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر: 75]

نعم، هو اليوم نفسه، سينفخ بالصور مرة أخرى " ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى"، وسيقوم الناس للحساب "فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ"، وستشرق الأرض بنور ربها "وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ"، وسيوضع الكتاب "وَوُضِعَ الْكِتَابُ"، وسيجيء بالنبيين والشهداء جميعاً "وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء"، وسنرى الملائكة حافين من حول العرش "وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ".

ولكنّ البعض قد لا يزال مستغرباً من الحديث عن قدرة الأرض على تحمل المشهد، فلنورد لهم الآيات الكريمة التالية ليروا أنَ ذلك ممكن:

- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾ [ابراهيم: 48-51]

ونعود إلى حيث بدأنا: أين كان العرش يوم الخلق الأول؟ وأين سيكون يوم الحساب؟ فالعرش كان يوم الخلق الأول على الماء (ولا شك فوق الماء الذي على سطح الكرة الأرضية)، فحقيقة أنه سيكون فوق الأرض يوم القيامة يؤكد فرضية أنه كان هناك يوم بدء الخلق، فلا عجب أنه كان مادام أنه سيكون. ولكن السؤال الآن هو: أين ذلك المسطح المائي الذي كان العرش عليه وما علاقة ذلك ببدء الخلق وحديثنا عن مناطق بعثة الرسل وسكن الخلق الأول (أي آدم وزوجه)؟

نحن نظن أنّ الجواب على هذا السؤال موجود في الآية نفسها:

- ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩﴾ [الزمر: 69]

ولنرقب قوله تعالى "وَأَشْرَقَتِ"، فغالباً ما فُسِرت العبارة على المجاز (أي بمعنى أضاءت)، وما نطلبه من القارئ الكريم هو تفسيرها على الحقيقة، فما معنى قوله "وَأَشْرَقَتِ"؟ ألا تعني أنّ النور جاء مصدره من جهة الشرق؟ فما معنى قولنا (ولله المثل الأعلى) أشرقت الشمس؟ ألا تعني أنّ ضوءها جاء من جهة الشرق؟ نعم ستشرق الأرض لأن نور ربها سيأتيها من جهة الشرق، وبهذا يكون العرش الذي ستحفه الملائكة من جهة الشرق، فأين سيكون العرش إذاً إنْ كان في الشرق؟ الجواب بكل بساطة قوله تعالى:

- ﴿...وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ .... ۝٧﴾ [هود: 7]

وأين الماء الموجود من جهة الشرق؟ فلنتأمل الخارطة لنجد المسطح المائي الأضخم على سطح الأرض:



نعم هناك كان العرش على وجه الماء، ومن هناك بدأ الخلق، وبدأ آدم الحياة على سطح الأرض من المكان الأقرب إلى ذلك المسطح المائي، وبدأت رحلة الإنسان بالهجرة غرباً في بناء الحضارات، وبنيت الحضارات تباعاً، وبعث الله الرسل تترا، متسلسلين ليس فقط زمانياً بل ومكانياً أيضا:

- ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٤٣ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٤٤﴾ [المؤمنون: 42-44]

حتى أقام الله الحجة على الجميع وليس فقط على من سكن منطقة الجزيرة العربية والشرق الأوسط، بل على العكس لقد كانت منطقة الجزيرة العربية هي آخر المناطق في تلقي الرسالة السماوية لأنها اللبنة الأخيرة التي اكتمل بها البناء:

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين صحيح البخاري

وإن تأملت - عزيزي القارئ- الخريطة السابقة وجدت عجباً في قوله صلى الله عليه وسلم، إنها فعلاً موضع لبنة من زاوية، ألا ترى ذلك؟

لاحظ عزيزي القارئ كيف تفيد كلمة "تترا" في الآية السابقة التسلسل المكاني أكثر من إفادتها التسلسل الزماني كما ذهب معظم المفسرين، وذلك لسبب بسيط جداً وهو أنّ التسلسل الزماني موجود ومعبر عنه في الآية الكريمة نفسها في قوله تعالى " فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا"، فإذا كانت تترا يقصد بها التسلسل الزماني فقط لأصبح هناك تكرار غير مبرر في الآية الكريمة، ولكن لما كانت "تترا" ، في ظننا- تفيد التسلسل المكاني أصبح التسلسل واضح في إرسال الرسل، فهو تتابع زماني ومكاني، زمانياً معبر عنه في الآية الكريمة بصيغة "فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا" ومكانياً بصيغة "أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا"، فيتم بذلك العدل الإلهي لكافة الأمم بغض النظر عن زمنها أو مكان سكنها.

وحتى لو رجعنا إلى النظريات المختلفة في نشأة وتطور الأرض لوجدنا أنّ كلامنا هنا لا يتناقض مع أي منها، فعلى سبيل المثال هناك النظرية التي تقول أن يابسة الكرة الأرضية كانت كتلة واحدة وبدأت عملية الإزاحة (continental drift) شيئاً فشيئاً حتى تبلورت القارات (خصوصاً ما أصبح يعرف Wegener's theory):

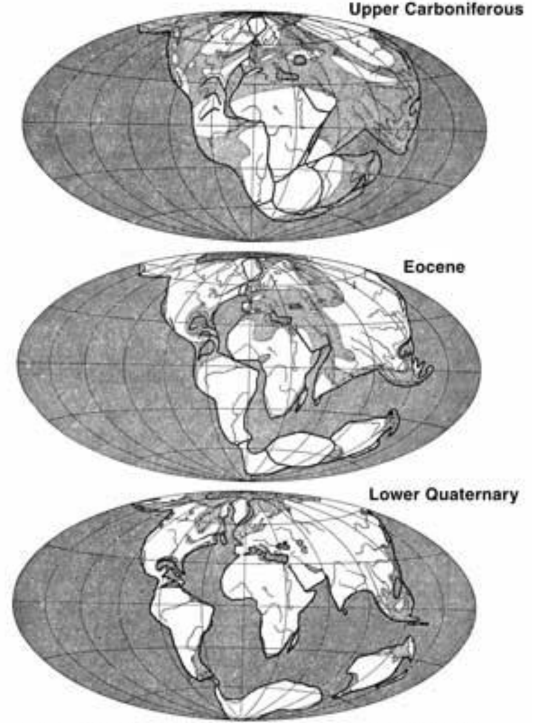


FIG. 4. Reconstruction of the map of the world according to drift theory for three epochs.
Hatching denotes oceans, dotted areas are shallow seas; present-day outlines and rivers are given simply to aid identification. The map grid is arbitrary (present-day Africa as reference area; see Chapter 8).

فلقد تحدث العلماء أنّ الأرض كانت كتلة واحدة سموهاPangaea الكلمة الإغريقية الرديفة لـ supercontinent)، ولكن بفضل النشاط البركاني (volcanic activity) والمد الحراري (Thermal expansion) أخذت عملية الإزاحة (continental drifting) بالحدوث، وقد ظهرت أدلة من العلوم المختلفة كعلم الهزات الأرضية (seismology) و علم المتحجرات (paleontology) وعلم المحيطات (oceanography) تشير إلى حدوث ذلك في الماضي السحيق، ونحن إذ لا نشكك هنا بالنظرية العلمية، لكنا ننتقدها لسببين: أولهما، لأنها لا تجيب على التساؤل الأكبر وهو: لماذا ومتى حدث ذلك النشاط البركاني(Volcanic activity) والتمدد الحراري(Thermal expansion) أصلاً؟ أي ما هي القوة الرهيبة التي تستطيع أن تحرك أجسام عملاقة بحجم القارات؟ وثانياً، أنها تؤكد أنّ الإزاحة كانت تدريجية.

لمعرفة وجهة نظر مغايرة أنقر على الموقع التالي:
http://www.newgeology.us/presentation20.html

إننا نزعم الظن أنّ فكرنا الديني يقدم التفسير الشافي لهذين التساؤلين على النحو التالي:

لقد كانت القارات جميعها كتلة واحدة متماسكة لا تنفصل لأنه كان هناك على المحيط (الكتلة المائية الأضخم) ضغطاً يوازي الضغط الذي تشكله كتلة اليابسة على الصفائح القارية (وأصبحت تعرف بنظرية theory of Plate Tectonics التي تطورت عن نظرية continental drift)، وبالالتزام بالقاعدة العلمية التي تقول "أن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار" فإنه عندما ذهب ذلك الضغط الموازي أحدث ضغطاً هائلاً على الصفائح من طرف اليابسة مما أدى بها إلى التصدع وبالتالي حدوث الشقوق في

مناطق الفصل (rip-zones) التي أدت بأحجام هائلة من اليابسة أنْ تنفصل عن بعضها(لمزيد من التوضيح أنظر Scalera 2003)، وذلك لأنّ قيم توزيعات الارتفاع والانخفاض distribution of heights and depths (كما لاحظ Wegener) تختلف بين اليابسة والمحيط. وقد يبادرنا البعض بالسؤال عن ذلك الضغط الموازي الذي كان موجوداً على الماء، فنرد بالقول إنه ما يفهم من قوله تعالى:

- ﴿... وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ... ٧﴾ [هود: 7]

ولهذا فعندما يعود ذلك العرش إلى حيث كان يوم الخلق الأول (في يوم القيامة) ستعود الأرض لتبدل شكلها مرة أخرى:

- ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨﴾ [إبراهيم: 48]

وقد اقترح البعض (كنظرية تيلور على وجه الخصوص Talyor’s Theory 1910) أنّ سلاسل الجبال العملاقة مثل الهملايا والألب قد تشكلت بفعل الضغط المعاكس باتجاه خط الاستواء (المركز) مما أدى ببعض الصفائح القارية العملاقة أن تتلاقى، مثل تلاقي صفيحة شبه القارة الهندية مع صفيحة القارة الأسيوية، فأدت بالتالي إلى بروز تلك السلاسل الجبلية العملاقة. لذا فإنّ كثيراً من الآيات تتحدث عن زوال الجبال في يوم الحشر الأكبر:

- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه: 105-107]
- ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ٦﴾ [الواقعة: 4-6]
- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾ [الحاقة: 13-17]
- ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩﴾ [المعارج: 8-9]
- ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾ [المزمل: 14]
- ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠﴾ [المرسلات: 8-10]
- ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩﴾ [النبأ: 18-19]
- ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ٦﴾ [التكوير: 1-6]
- ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥﴾ [القارعة: 4-5]

فهذه الآيات تصور ما سيحدث في ذلك اليوم الرهيب، والمهم في الأمر هنا هو انشقاق السماء لنزول العرش الذي ستحمله الملائكة الثمانية، فعندها ستدك الأرض والجبال دكة واحدة "**وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**"، أي ستعود كتلة واحدة (انظر خريطة Wegener للأرض قبل عملية الإزاحة

القارية وانظر إلى الخريطة التي تصور مستقبل الأرض بعد ملايين السنين) وبذلك ستتلاشى الجبال مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ۝٦﴾ [الواقعة: 4-6]

أما حول تلك الكتلة الهائلة من اليابسة فقد حدث ذلك الصدع:

- ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢﴾ [الطارق: 12]

وتكون ما يشبه الحزام الذي يتصف بنشاطه الزلزالي والبركاني حول المحيط بما أصبح يعرف في الأوساط العلمية باسم The Ring of Fire، قال تعالى:

- ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ [الطور: 6]

وثانياً، أنّ الإزاحة حصلت مرة واحدة (وهذا لا ينفي بالتأكيد التمدد الحالي البطيء جداً) وذلك لأنّ القوة التي أدت بالكتل الضخمة أنْ تتحرك في الأصل لا يمكن أنْ تكون بطيئة بتلك الحالة عندما بدأت، فردة الفعل التي يحدثها تحرك كتلة هائلة بحجم الصفائح القارية لابد أنه كان هائلاً وما نشهده الآن لا يتعدى أنْ يكون فترة السكون أو الهدوء التي تلت ذلك الحدث العظيم، ولا أخال أنّ فكرة كهذه لا تجلب انتباه المتخصصين، بل على العكس لقد أدت إلى ظهور نظريات بديلة لنظرية Plate Tectonics وكان أشهرهاSchock Dynamics

ولمزيد من المعلومات عن النظرية، يمكنك الحصول عليها من الموقع الإلكتروني التالي: http://www.newgeology.us

لمزيد من المعلومات النظرية عن الانفصال القاري فالقارئ مدعو لمراجعة المصادر التالية:

. Lake (1923a), Friedlander (1995), Davis (1977), Le Grand (1988)

ولكننا في السياق ذاته نؤكد أننا لا نقرأ القرآن الكريم بناءً على ما تقوله النظريات العلمية، بل هو العكس تماما، إننا ننظر لهذه النظريات من خلال النصوص القرآنية، فنصدق ما يصدقه القرآن ونكذب ما يكذبه، فكتاب الله صحيح على اطلاقة، وقول البشر يؤخذ منه ويرد معظمه.

ونحن إنْ تصورنا ذلك لوجدنا أنّ الكتلة المائية التي تحيط باليابسة كتلة هائلة، ويأتي العدل الإلهي بأنْ لا يكون عرشه على أي جزء من اليابسة حتى لا تتميز أمة عن أخرى، فيختار أنْ يكون عرشه على الماء، وتبدأ الرحلة البشرية من هناك.

وهنا لا بد من التأكيد أننا لا نتحدث عن تكييف العرش على مساحة مائية محدودة، فالآية القرآنية تشير أنْ العرش يطل على الكرة الأرضية من جهة الشرق، وبهذا فإن الناس عندما يخرجوا من الأجداث يكون أول ما يجلب انتباههم هو نور ربهم (وليس ربهم بالتأكيد)، وبهذا تتجه الأنظار جميعها نحو الشرق، فما تستطيع أنْ تراه هو كيفية التفاف الملائكة من حول العرش، فالآية الكريمة تؤكد أنّ الرؤية الحقيقية للملائكة ستحصل:

- ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾ [الزمر: 75]
- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾ [الحاقة: 13-17]

فجل ما ندّعي هو مصدر الإشراق وليس المكان الجغرافي للإشراق، فلا يظن البعض أننا نقصد أنّ ذلك المكان سيحتوي الوجود الإلهي، لأن الالتفاف الملائكة سيكون فقط حول العرش، ونحن لا نصور العرش على أنه مكان "جلوس الذات الإلهية"، فذاك أمر غير وارد، وعندما تابعنا مفردة العرش في النص القرآني، فخرجنا باستنباطات وافتراءات نظن أنها غير مسبوقة، انظر الجزء السابع من مقالتنا ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب العرش. ولكنّ مصدر النور الإلهي سيكون (كما تصوره الآية القرآنية) جهة الشرق، ففي منظورنا البشري نستطيع إدراك مصدر النور ولكننا قد لا نستطيع الإحاطة بمكان وجوده، فالشمس (ولله المثل الأعلى) تطل علينا من الشرق ولكننا لا نستطيع أنْ نحدد مكانها بمجرد النظر إليها.

وقبل أنْ يستدركنا البعض بالقول بأنّ الأرض كروية الشكل فما يكون شرق الصين هو غرب أمريكيا مثلاً، نرد عليه بالقول بأنّ نور الله هو أعظم من الشمس ولذا فإنه عندما "يشرق" فهو سيطل على كل الكرة الأرضية وبنفس الوقت من جهة الشرق، فحتى من في الصين أو أمريكا أو الشرق الأوسط ينتظر الشمس في الصباح لتطل عليه من جهة الشرق، وكذا هي الحالة بالنسبة للبشرية بأسرها في ذلك اليوم، ولكن لأنّ نور الله أعظم من كل ما نستطيع أنْ نتخيله فهو سيطلع على الجميع من جهة الشرق ولكن في نفس الوقت، فالناس عندما يخرجوا من قبورهم سيلتفتون جميعاً بنفس الاتجاه ليسود النظام المصحوب بالدهشة من هول الموقف، قال تعالى:

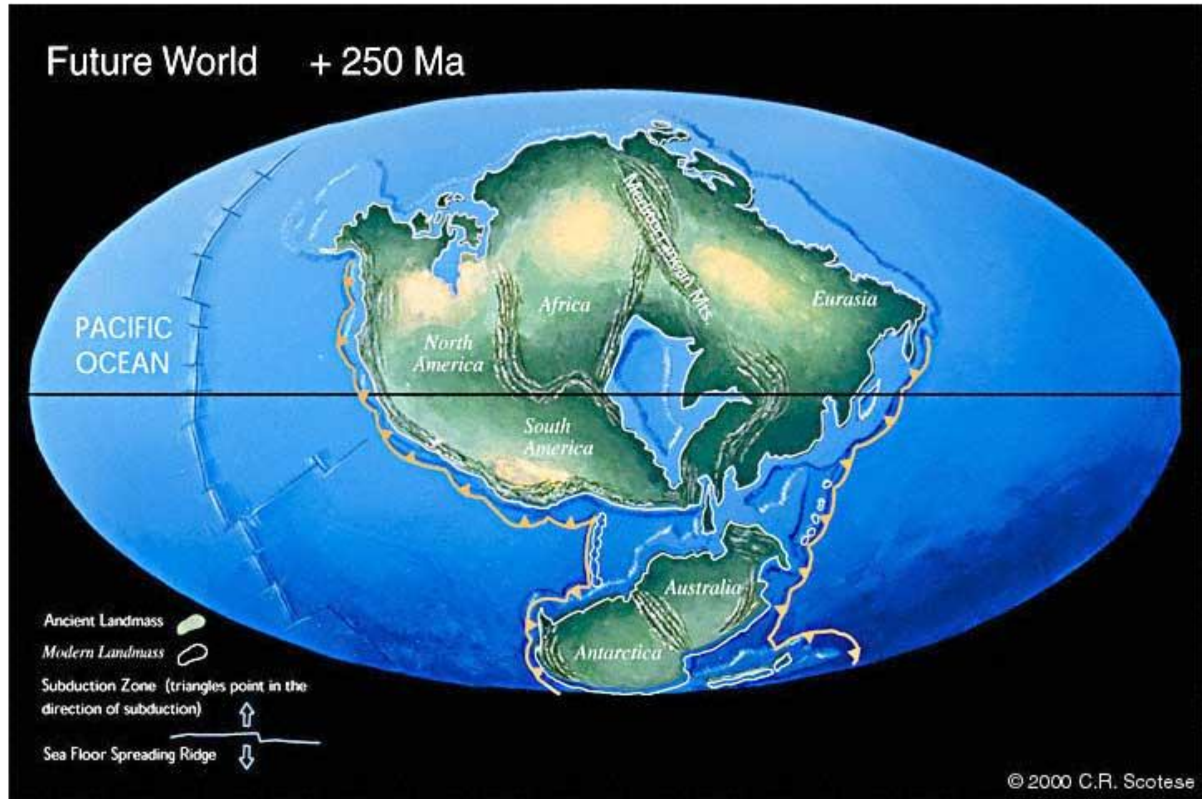
- ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ١٠٨﴾ [طه: 108]

ولا ننسى قوله تعالى:

- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ [النساء: 126]
- ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت: 54]

فالله محيط بهم وبالتالي سيكون الإشراق على الخلائق جميعاً في نفس الوقت.

واليك عزيزي القارئ الخريطة التالية كما تصور مستقبل الكرة الأرضية:



الدليل اللغوي

لعل الجميع يعلم أنّ اللغة كائن متغير ويستحيل أنْ تسلم لغة من داء التغيير، فلقد اندثرت لغات بأكملها ولربما ماتت كلياً أو تولدت عنها لغات أخرى، وكثير من لغات الأرض لا يفهمها أهلها قبل مائتين أو ثلاث مئة سنة من عمرها، ولغات العالم الرئيسية قليلة جداً، فهناك لغات يُعَد متكلموها على أصابع اليد، ولغات لم يكتب منها حرف واحد، ولكن بالمقابل هناك لغات عمّرت آلاف السنين، وسؤالنا هنا عن السبب: لماذا تموت وتنتهي لغات وتعيش وتستمر أخرى؟ لربما هناك أسباب كثيرة تساهم في تعمير اللغة، ولكن الجميع يدرك أنّ اللغات التي نزلت بها رسالات سماوية عاشت واستمرت أكثر من غيرها، فلا يكاد يختلف اثنان أنّ اللغة العربية ما كانت موجودة في يومنا هذا لولا القرآن الكريم، وكذلك حفظ العهد القديم العبرية القديمة، وساعد العهد الجديد في استمرارية الآرامية (ولو على نطاق محدد)، والسؤال الذي نطرحه هنا هو: ما سر استمرارية اللغة السنسكريتية؟ لا بل وتمخضت عنها لغات أخرى وأثرت في لغات كثيرة أكثر مما أثرت أي لغة أخرى، إننا نعتقد أنّ اللغة السنسكريتيه على قدمها من أوائل اللغات التي حملت الفكر الديني.

ومما لا شك فيه أن رحلة استعمار أوروبا قد بدأت من الموجات البشرية التي انتشرت من شبه القارة الهندية عبر الأنضول في أسيا الصغرى ومن هناك إلى كافة أرجاء أوروبا، وقد كان للتأثير اللغوي دوره الكبير في ما يسمى Indo-European languages، فمعظم اللغات الأوروبية لها جذورها الضاربة في التاريخ الهندي القديم، وهم لم يحملوا معهم الموروث اللغوي فقط بل حملوا كذلك الموروث الديني، ولنقرأ النص التالي الذي يتحدث عن الهجرة من أواسط أسيا إلى أوروبا:

That there was a migration of Indo-European speakers, possibly in waves, dating from the 2nd millennium BC, is clear from archaeological and epigraphic evidence in western Asia. Mesopotamia witnessed the arrival, in about 1760 BC, of the Kassites, who introduced the horse and the chariot and bore Indo-European names. A treaty from about 1400 BC between the Hittites, who had arrived in Anatolia at about the beginning of the 2nd millennium BC, and the Mitanni empire invoked four deities—Indara, Uruvna, Mitira, and the Nāsatyas (names that occur in the Rigveda as Indra, Varuṇa, Mitra, and the Aśvins).

للمزيد من المعلومات حول الموضوع أنظر المراجع التالية:

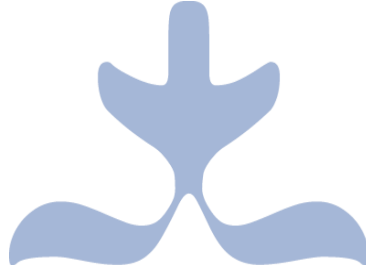
Beekes, (1995), Chakrabarti (1994), Collinge(1985), Mallory (1989), Remys (2007), Renfrew (1987), Schleicher (1861/62), Strazny (2000), Szemerényi (1957), Watkins (2000).

إن أكثر ما يهمنا من هذا النص هو موضوع الآلهة التي أحضروها معهم (ويرد ذكرها في القصائد الدينية الهندية القديمة أو ما يسمى Regveda)، وهذه بعض تلك الآلهة Indara, Uruvna, Mitira, and the Nāsatyas، وهنا نتوقف لنطلب من القارئ الكريم إمعان النظر والتأمل بهذه الأسماء في ضوء الآية القرآنية التي تتحدث عن معبودات قوم نوح، والتي جاءت في القرآن الكريم على لسان نبيهم نوح نفسه:

- ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: 23]

TO BE CONTINUED ...

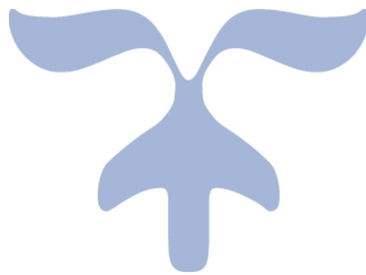
أسأل الله العظيم أن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه إنه هو السميع المجيب، ونسأله تعالى أن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، وأن يعلمنا ما لم يعلم أحداً من خلقه، وأن يعلمني الذكر من الكتاب وأن يتقبلني في المذكرين، ....



من قصة نوح

عَلَيْهِ السَّلَامُ

الجزء الثاني



الجزء الثاني: كم لبث نوح في قومه؟

الجواب "أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا"، أليس كذلك؟ ولكن ألم يستوقف عمر نوح الكثيرين؟ ألم يتساءل الكثيرون: كيف عاش نوح تلك الفترة الطويلة؟ هل كان ذلك العمر طبيعياً في تلك الحقبة من الزمن؟ أم هل هو نوح فقط من عاش ذلك العمر الطويل وكفى بينما كان متوسط أعمار قومه كغيرهم من الأمم؟ لا شك أنّ تلك الأسئلة خاطرت الكثيرين، ولربما أخذها البعض إيماناً يقينياً فصدقوا بها كما هي، وشكك الآخرون بها متسلحين بالدليل العلمي في إستحالة مثل هذا الأمر، ووقع الصراع بين الطرفين، ينتظر كل طرف أنْ يثبت أنّه هو (وليس خصمه) على صواب، ولكننا نعتقد أنّ الطرفين قد غفلوا عن دراسة عمر نوح دراسة حقيقية توضح ماهية عمر نوح الذي يتحدث عنه النص القرآني.

إننا نعتقد أنّ هناك إشارات نصية(referents) في كتاب الله تفضي - بلا شك- إلى تسليط الضوء على الموضوع بطريقة مختلفة قد تسعف في فهم النص القرآني بشكل أكثر دقة، ولنبدأ بإثارة تلك الإشارات ومتابعتها، سائلين الله عز وجل أنْ يوصلنا إلى مبتغانا.

لعل الكثيرين الذين يتفحصون النص القرآني قد استوقفتهم بعض الفاظ الآية نفسها التي تتحدث عن عمر نوح عليه السلام، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14]

ونورد هنا إشارتين أساسيتين وهما:

⇐ **أولاً**، قوله تعالى " فَلَبِثَ فِيهِمْ"، وسؤالنا عن سبب تحديد العمر بقوله "فِيهِم"، أي لِمَ لَمْ يكن النص على نحو "فلبث ألف سنة إلا خمسين عاماً"؟ وعندها يكون المعنى على الإطلاق،

⇐ **ثانياً**، لقد إستوقفنا قوله تعالى: "إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا"، وسؤالنا هو: لم تبدلت لفظة السنة بالعام؟ فهل لبث نوح في قومه تسعماية وخمسين عاماً أم تسعماية وخمسين سنة؟ "وما الفرق؟" ربما يرد البعض مستغرباً، وحتى يتبين القارىء الكريم ما نقصد ندعوه لمقارنة هذه الآية الكريمة بآية أخرى في كتاب الله تحدثت عن السنة:

- ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ٢٥﴾ [الكهف: 25]

ففي حين أنّ الزيادة التي حصلت في حالة أهل الكهف لم تحدد بالعام (فلَمْ يأتِ قوله تعالى على نحو "وازدادوا تسعة أعوام" مثلاً)، جاء النقصان في حالة نوح متبوعاً بكلمة "عاماً"، ولنتدبر كذلك تفسير يوسف عليه السلام لرؤيا الملك مركزين على التبديل في الكلمتين:

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ٤٧﴾ [يوسف: 47]
- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ٤٨﴾ [يوسف: 48]

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسف: 49]

فهل ياترى تفيد كلمة عام ما تفيده كلمة سنة؟ أي هل العام سنة والسنة عاما؟ وإن كان كذلك فلِمَ التبديل؟ إننا نعتقد أنّ كلمة عام تختلف عن كلمة سنة، وكل منهما له إستخدامه الذي لا يجب أنْ يختلط مع غيره. فلقد كان الخطأ الأكبر الذي وقع به الناس أنهم حسبوا عمر نوح على النحو التالي:

950 =50-1000

وغفلوا أنّ طرفي المعادلة مختلفة، 1000 سنة يطرح منها 50 عاما، فلو كانت على نحو 1000 سنة إلا خمسين سنة أو 1000 عام إلا خمسين عاماً لسلّمنا بالأمر ولقلنا لاريب في أنْ يطرح طرفي المعادلة من بعضهما، ولكن لمّا كان الطرفان مختلفين كان لزاماً توحيد طرفي المعادلة قبل إجراء عملية الطرح (وباستخدام اللغة الرياضية نقول لا يمكن أنْ نطرح س من ص إلاّ إذا كانت قيمة كل متغير معروفة)، فلقد درّستنا معلمة الصف الأول إبتدائي (ب) أنه لا يجوز لنا أنْ نطرح تفاحاً من برتقال أو العكس، فنحن نظن أنّ الفكري الإسلامي الرياضي لم يتجاوز بعد مرحلة الصف الأول إبتدائي (ب). ولتقريب الصورة إلى الأذهان، تصور معي لو أنّ أحدهم قال لك أنّ عمري 1000 عمرة إلاّ خمسين حجة فهل يكون الناتج 950 عمرة أو حتى 950 حجة، الجواب بكل تأكيد لا، لأنّ العمرة لا تساوي حجة والحجة لا تساوي عمرة حتى لو كان الحاج يعتمر كل مرة يحج فيها، أليس كذلك؟

وحتى لو سلمنا بما إفترضه غيرنا أنّ العام هجري والسنة ميلادية فيبقى المنطق قائماً بأنْ لا يطرح العام الهجري من السنة الميلادية لانهما غير متساويين، فهل يجوز أنْ نطرح العام الذي يتراوح بين 354-355 يوماً من السنة التي تتأرجح على 365 يوماً؟!

وهنا أيضاً نثبت خطأ ما ذهب إليه الكثيرون أنْ السنة تدل على الشدة والعام يدل على الوفرة والخير العميم الذي ظنوا أنّ سورة يوسف تبيّنه، فنرد عليهم بالقول بنفس السورة أنّ كلمة السنة أستخدمت في حالتي الشدة والرخاء:

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧﴾ [يوسف: 47]
- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨﴾ [يوسف: 48]

لتدل الأولى على السبع بقرات السمان (سبع سنبلات خضر) وتدل الأخرى على السبع بقرات العجاف (سبع سنبلات يابسات):

- ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ۝٤٣﴾ [يوسف: 43]

فلب القول أنّ الفهم الحقيقي للإستخدام القرآني لمفردة العام ومفردة السنة سيدلنا على الفرق بينهما ومن ثم تحديد قيمة كل متغير: طول العام وطول السنة، ليكون ناتج الطرح محدداً بعد معرفة قيمة المتغيرات في طرفي المعادلة:

1000 سنة – 50 عاما = ( ) عاماً

أو

1000 سنة – 50 عاما = ( ) سنة

أولاً: فَلَبِثَ فِيهِمْ

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14]

إنّ سؤالنا الأول يتمحور حول تحديد عمر نوح عليه السلام بقوله تعالى "فِيهِم"، أي لِمَ لَمْ يكن النص على نحو "فلبث ألف سنة إلا خمسين عاماً"؟ وعندها يكون المعنى على الإطلاق، خصوصاً إذا علمنا أنّ صيغة "**لبث في**" غالباً ما ترد لتتبع بالمكان، قال تعالى:

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف: 42]
- ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصافات: 143-144]
- ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ٢٥﴾ [الكهف: 25]

أما لبث الزمانية، فترد دونما تحديد:

- ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [الكهف: 26]

وترد متبوعة بتعبير يدل على الزمن:

- ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ٤٥﴾ [يونس: 45]
- ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النازعات: 46]

وسؤالنا مرة اخرى عن سبب تحديد عمر نوح بقوله " فِيهِمْ"

وهل يفهم من هذا الاستخدام أنّ نوحاً قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما بينما لبث في غير قومه مدة أخرى من الزمن؟ فيكون بذلك عمر نوح أكثر من ألف سنة ألا خمسين عاما!!!

ثانيا: أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فما هو العام وما هي السنة؟

العام مذكر والسنة مؤنث، أليس كذلك؟ ولكن المسألة -لا شك- أكبر من ذلك، فلا بد من فهم السياقات القرآنية التي ورد فيها كل لفظ وتدبرها ومحاولة ربطها ببعضها حتى نستجلي تصوراً أكثر وضوحاً للأمر، فهناك بعض الإستخدامات التي تحيّر الألباب، والتي لا بد من التفكر بها حتى يتجلى الفهم، ونبدأ أولاً بقوله تعالى في محكم التنزيل:

- ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾ [الكهف: 25-26]

ففي هذا السياق القرآني يخبرنا الله تعالى أنّ أصحاب الكهف قد لبثوا في كهفهم "ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا"، أليس كذلك؟ ولكن القارىء البسيط – من مثلي- تربكه الآية التالية بأن الله يقول "قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا"، وسؤالنا هو: أليس الله هو نفسه من قال أنّ أصحاب الكهف قد لبثوا تلك الفترة الزمنية دونما أدنى شك؟ فلِمَ يعود ليقول أنّ الله هو من يعرف الفترة الزمنية التي قضوها في كهفهم؟ أليست هي ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً؟ ألم نعلم نحن كذلك تلك الفترة عندما أخبرنا الله بها؟ فكيف إذاً يمكن تفسير أنّ الله هو من حدد تلك الفترة رقمياً ثم يعود ليقول هو أعلم بما لبثوا؟ ولا ننسى كذلك أنّ الله قد قال قبل ذلك في نفس السورة:

- ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١﴾ [الكهف: 11]

إننا نجتهد القول أنّ الله قد عاد ليقول "قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا" بعدما أعلمنا بالفترة الزمنية بالتحديد "ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا" لأنه إستخدم لفظة السنة على وجه الخصوص، ولو جاءت كلمة "عام" في هذا السياق بدلاً من السنة لما تبعها قوله تعالى " قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا"، كما في قوله تعالى:

- ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [البقرة: 259]

فلب القول أنه عندما جاءت لفظة السنة محددة رقمياً أتبعها الله بقوله "قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا"، ولكن عندما جاءت لفظة العام محددة رقمياً لم يتبعها مثل ذلك القول.

ولكن القارىء يتسآءل مستغرباً: ولم ذلك؟ فنقول هناك إشارات أخرى في كتاب الله تثبت صحة ما ندعي، قال تعالى:

- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج:47]
- ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة:5]
- ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: 4]
- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس: 5]
- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف: 12]

إنّ هذه الآيات القرآنية تشير إلى حقيقة جلية وهي أنّ السنة (مفرد سنين) هي من حساب البشر "أي مقدرة تقديراً"، فهناك يوم عند ربنا كالف سنة مما نعد، وهناك يوماً كـ خمسين ألف سنة مما نعد، والله جعل الليل والنهار لنعلم عدد السنين والحساب، ولكنّ السؤال البسيط هو: هل إستطعنا نحن البشر أنْ نتوصل إلى حساب الليل والنهار (الزمن) حساباً صحيحاً؟ قال تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل:20]

وربما ظن البعض أنّ حسابنا للزمن دقيق، فنرد بالقول ولكن هل حسابنا للزمن كحساب ربنا له؟ الجواب هو النفي قطعاً. وقد يقول البعض وما علاقة ذلك بموضوع السنة والعام؟ نقول إنّ المتدبر للآيات القرآنية يدرك فوراً أنّ السنة هي من حساب البشر وليست من حساب رب العالمين، ولذا فعندما قال تعالى:

- ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: 25]

تبعها فوراً بقوله:

- ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: 26]

ليقول لنا هم فعلاً لبثوا "ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا" من حسابكم أنتم ولكن الله وحده هو من يعرف الزمن الحقيقي الذي لبثوه في حسابه هو " قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا" .

وقد يدركنا البعض بالقول: ولكن كيف هو حساب الله للزمن إنْ كان يختلف عن حسابنا؟ نقول لمن أراد المعرفة دعنا نتدبر الآية الجميلة التالية:

- ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ [التوبة: 36]

يقرر الله أنّ عدة الشهور هي إثنا عشر شهرا، وقد يقول البعض: أليس ذلك هو العام؟ فالعام إثنا عشر شهرا، أليس كذلك؟ نقول نعم، هو كذلك، فالله سبحانه يحسب الزمن بالعام، فإذا ورد لفظ العام لا يتبعها تشكيك بالفترة الزمنية كما في قوله تعالى:

- ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [البقرة: 259]

ففي هذا المثال يخبرنا الله أنّه أمات الرجل مئة عام (فتلك فترة محددة) ولذا لم يتبعها الله بقوله "والله أعلم بما لبث" كما كان الحال عند الحديث عن اهل الكهف، والسبب -كما ذكرنا سابقاً- هو أنّ السنة من حساب البشر بينما العام من حساب رب البشر، فالعام هو إثنا عشر شهراً في حساب الله، أما السنة فهي من حساب بني البشر، ولذا فهي تختلف من إمة إلى أخرى، فالسنة الميلادية مثلاً (وإن كانت إثنا عشر شهراً) تختلف عن السنة الهجرية (وإن كانت هي كذلك إثنا عشر شهراً)، فحساب البشر يختلف بإختلاف المجتمعات، ولذا فإنّ الشعوب المختلفة لها حساباتها المختلفة للسنة، فهناك السنة العربية وهناك السنة الميلادية (الغربية) وهناك السنة الفرعونية والهندية والصينية وهكذا، وهذا يعيدنا فوراً إلى الحديث عن علاقة ذلك بموضوعنا الرئيسي وهو عمر نوح عليه السلام، لنقول:

أنّ نوحاً عاش في قومه ألف سنة (مما يعدون) إلا خمسين عاما (من حساب رب العالمين)

ولذا جاء قوله تعالى " فَلَبِثَ فِيهِمْ"، إي من حسابهم هم، وليس من حساب قوم إبراهيم أو قوم موسى أو قوم عيسى أو حتى قوم محمد (عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم السلام)، فهي إذاً ألف سنة من حساب أمة نوح أنفسهم، وما نحن بحاجة إليه هو تحديد **السنة النوحية**، فإذا إستطعنا معرفة كم طول السنة بناءاً على حساب قوم نوح نستطيع تحديد عمر نوح بدقة متناهية.

كيف يتم حساب السنة في المجتمعات المختلفة؟

ولنبدأ القصة في المجتمع الذي عاش به يوسف عليه السلام حيث ترد حسبة الزمن الأولى في كتاب الله، قال تعالى:

- ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾ [يوسف: 47]

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [يوسف: 48]
- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 49]

إذاً فالمجتمع كان زراعياً، فقوله "قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا" أي سبعة مواسم متتالية، فتكون كل سنة عبارة عن موسم زراعي واحد، ففي السنة هناك موسم زراعي واحد وهو زراعة المحاصيل التي لها سنابل:

- ﴿... فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ... ﴿٤٧﴾﴾ [يوسف: 47]

" ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ" وهذا يعني بلا شك سبعة مواسم جدب وقحط، ونتوقف لنسأل القارىء سؤالاً بسيطاً وهو: هل الحذف هنا يقدر بلفظة السنة أم العام؟ أي هل يفهم قوله تعالى على نحو "ثم يأتي من بعد ذلك سبع سنين شداد" أم على نحو "ثم يأتي من بعد ذلك سبعة أعوام شداد؟ لاشك أنّ القليل القليل ربما يجادل في ذلك، فالحذف هو "سبع سنين شداد" وليس سبعة أعوام، والدليل اللغوي واضح جداً: فكلمة "سبع" مذكرة فتكون بذلك الكلمة المحذوفة- حسب قواعد العدد العربية- لاشك مؤنثة، وكلمة سنة –كما أسلفنا- مؤنثة بينما كلمة عام مذكرة، ولكن السؤال المفاجىء هو: فما قصة العام التي وردت بعد ذلك في نفس السياق القرآني:

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 49]

نقول حتى نفهم ذلك فعلينا تدبر مفردات الآية نفسها، فالله يقرر أنّ في ذلك العام الذي سيغاث فيه الناس سيقوم الناس بعملية العصر "وَفِيهِ يَعْصِرُونَ"، وسؤالنا هو: ما دخل المحاصيل الحقلية التي لها سنابل بعملية العصر؟ فماذا سيعصر القوم؟ ويأتي الجواب في نفس السورة على لسان صاحب يوسف في السجن، قال تعالى:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف: 36]

إذاً، ففي مجتمع يوسف كان هناك موسمان زراعيان: موسم الحصاد (ممثلاً بالسنابل والخبز) وموسم العصير (ممثلاً بالعصير والخمر)، لذا فالزراعة الحقلية هي سنة والعصير هو سنة ولكنّ الإثنتان لا يكونان في نفس السنة وإنما في نفس العام، فالعام فيه أكثر من موسم زراعي واحد بينما السنة هي موسم زراعي واحد، وقد يرد البعض بالقول: وأين الدليل على ذلك؟ فما علاقة السنة بموسم الزراعة؟ فنقول دعونا نتدبر قوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: 130]

وسؤالنا هو: ما معنى قوله "أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ"؟ أليست هي الجدب والقحط بالمواسم الزراعية؟ ولنتدبر الدقة في اللفظ القرآني، فهي "سنين" وليست سنة، والسؤال التالي هو: لماذا؟ لأن العام الواحد يحتمل أكثر من موسم واحد (أي فيه سنين)، ولهذا كان القحط والجدب الذي نزل على آل فرعون

هو في كل المواسم الزراعية حتى في العام الواحد، فهناك قحط في المحاصيل الحقلية وقحط في المحاصيل الشجرية وقحط في المحاصيل الشتوية والصفية وهكذا ،ولا زال هذا الإستخدام متبعاً حتى يومنا هذا، فيقول المزارع أنّ القمح هذه السنة جدب ولكن الزيتون هذه السنة لا بأس فيه، فعلى الرغم أنه يتحدث عن نفس العام لكنه يذكر أنّ هناك سنة جدب (القمح) وسنة غلال (الزيتون)، وإن كانت جميعها في عام واحد، فلو جاء النص القرآني على نحو "ولقد أخذنا آل بفرعون بالسنة" لفهمنا أن الجدب والقحط قد ألم بموسم واحد فقط كمحصول القمح مثلاً، ولكانت بقية المواسم (السنين) غير ذلك، ولهذا نفهم قوله تعالى في سورة الكهف:

- ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾ [الكهف: 25]

فلو جاء قوله تعالى على نحو "ثلاثمئة سنة" لفهمنا أنّ مكثهم في الكهف كان ثلاثمئة موسم كموسم العنب أو الزيتون أو القمح، بينما هو ثلاثمئة سنين، أي كل المواسم في العام الواحد. ولكن قارن عزيزي القارىء ذلك بعمر نوح:

- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14]

فهنا جاء اللفظ "سنة" وليس "سنين" لأنّ نوحاً عاش ألف سنة وليس سنين، أي ألف موسم زراعي وليس ألف مواسم (أعوام) زراعية؟ فإذا كانت السنة عندهم موسم زراعي واحد تكون السنة تساوي عاماً كاملاً، وإذا كان عندهم موسمين زراعيين تكون كل سنتين عاما (مفصلات على النحو التالي: من موسم القمح وحتى موسم القمح التالي سنة، ومن موسم العنب حتى موسم العنب التالي سنة، فيكون العام الواحد فيه سنتان وإن كان كل منهم يحتاج إلى دورة كاملة)، وإذا كان لديهم ثلاث مواسم زراعية تكون كل ثلاث سنين عاما، وإذا كانوا يتمتعون بإربع مواسم زراعية يكون العام أربع سنين وهكذا. ففي حالة يوسف كان العام سنتين (سنة المحاصيل الحقلية وسنة أشجار الثمار التي تعصر كالعنب)، فالمطر الذي سينزل ستكون فائدته على المحاصيل الحقلية ذات السنابل وسيكون كذلك ذات فائدة على شجر المحاصيل التي تعصر. ولذا عندما جاء الحديث عن المحصولين معاً تغير اللفظ من كلمة سنة إلى كلمة عام:

- ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف: 49]

ولنرقب الدقة القرآنية عند الحديث عن مواضيع لاعلاقة لها بالمواسم الزراعية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾ [التوبة: 28]
- ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [التوبة: 37]

- ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾ [التوبة: 126]

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤﴾ [لقمان: 14]

فلا يحق للمشركين أن يقربوا المسجد الحرام طوال العام "عَامِهِمْ" وليس في موسم معين "سنة"، وكذلك التحريم والتحليل، وكذلك فتنتهم، وكذلك فصال الإنسان"، فهي جميعاً تتحدث عن العام بطوله وليس عن السنة، فلو جاء اللفظ مثلاً على نحو "فلا يقربوا المسجد الحرام بعد سنتهم هذه" لفهمنا أنّ التحريم كان في موسم من مواسم العام وليس العام كله بناء على حسابهم هم للسنة. وإنما التحريم كان في فترة الإثني عشر شهراً (العام بطوله).

ولنتدبر أيضاً قوله تعالى:

- ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه: 40]

وسؤالنا هو: أليست الفترة التي قضاها موسى في أهل مدين معروفة؟ ألم يقل الله تعالى في محكم التنزيل:

- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ [القصص: 27]

فلم استخدم لفظ "السنين" بدلاً من "العام" في قوله " فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ"؟ الجواب كلا، فالفترة التي قضاها موسى في أهل مدين لم تكن محددة لقوله تعالى:

- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ [القصص: 27]

فالفترة كانت من ثمان إلى عشر حجج (أعوام) وبالتالي يستحيل إستخدام لفظ العام، ويصار إلى إستخدام لفظ السنة، فالسنة غير محددة (لأنها تختلف من أمة إلى أخرى) بينما العام محدد، ونجلب إنتباه القارىء إلى ملاحظة مفيدة جداً وهي أنّ العام يحسب بالشهور التي هي إثنا عشر شهرا في كتاب الله وقد تحدث الله عن شهر رمضان والأشهر الحرم والحج وجميعها تتبع التوقيت القمري وليس الشمسي، ونحن نعلم جميعاً أنّ العام القمري لا يرتبط أبداً بمواسم الزراعة، لذا جآءت الروعة القرآنية في قوله تعالى:

- ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝١١٣﴾ [المؤمنون:112-113]

فلو كان الناس جميعهم يعرفون بالتحديد الفترة التي قضوها لاستخدم لفظ العام، ولكنهم لا يعرفون ذلك فكان جوابهم " قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ" لتؤكد فكرة عدم الدقة في المعرفة البشرية للزمن، ولكن من الجميل أيضاً معرفة تتمة الآية وهي "فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ"، فهناك عادين وليس عاد واحد، وذلك لأنّ لكل أمة عادّهم الذي قد لا ينظر إلى الزمن بنفس الطريقة التي ينظر بها غيره، ففي حين أنّ السنة الملادية –كما أسلفنا- إثنا عشر شهراً والسنة الهجرية إثنا عشر شهراً كذلك لكنهما لا يتطابقان لا في البداية ولا في النهاية ولا حتى في حساب الشهر الواحد، فالإنسان العربي قد يعيش سبعين سنة في عدّه التي قد تعادل ثمانين أو لربما ستين سنة في عدّ غيره، وبهذا يتفاوت حساب العمر من أمة إلى أخرى، ولنتدبر قوله تعالى:

- ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ [الروم: 2-4]

أليس الله من يعلم الفترة الزمنية بالتحديد متى ستغلب الروم؟ فلم عبر عنها بقوله "فِي بِضْعِ سِنِينَ"؟ أي لم لم يحددها بالضبط؟ فنقول لنتذكر أنّ الخطاب موجه إلى النبي محمد وقومه ولكنه بخصوص أمة أخرى وهي الروم، فـ بم إذاً سيتم تحديد الفترة الزمنية بحساب قوم محمد أم بحساب الروم ولكل منهم حسابه الذي لا يتطابق مع الآخر؟ فلو جاء التحديد بالرقم بحساب قريش ولنقل سبع سنين مثلاً لقالت الروم (وكذلك الأمم الخرى) أنّ النبوءة لم تتحقق لأنّ إنتصارهم كان بعد ثمان أو ست سنين من حسابهم هم، ولو جاءت محددة بالرقم بحساب الروم ولنقل ثمان سنين لقالت قريش أنّ النبوة لم تصدق لأنّ إنتصار الروم كان في سنتهم السابعة، وتخيل معي ردة فعل الأمم الأخرى مادام حسابهم للزمن يميزهم عن الأمم الأخرى، لذا جاءت الدقة القرانية على نحو "في بضع سنين" لتحسبها كل أمة بطريقتها ما دامت السنة تختلف من أمة إلى أخرى، وبالتالي نصل إلى مبتغانا: **لقد عاش نوح ألف سنة من حساب قومه.**

وأخيراً لنتدبر قوله تعالى:

- ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة:5]
- ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾ [المعارج: 4]

فيرتبك القارىء هل هو اليوم بالف سنة أم بخمسين ألف سنة؟ أم هل هما يومان مختلفان؟

إن الدقة تستدعي التدبر باللفظ، ففي حين أنه في يوم كان مقداره الف سنة مما نعد كان خمسين الف سنة (من حساب آخر ليس بالضرورة من حسابنا)، فما نحسبه نحن ألف سنة ربما يحسبه غيرنا خمسين الف سنة، فحسبة السنة –كما أسلفنا تختلف من قوم إلى قوم ومن أمة إلى أمة ومن عصر إلى عصر، ولو جاء اللفظ على صيغة العام لما تبدلت الأرقام ولما إختلفت المقاييس.

كيف نحسب عمر نوح

لقد توصلنا إلى الفهم أنّ السنة تختلف من أمة إلى أخرى، بينما العام ثابت وهو إثنا عشر شهراً، وبالتالي يكون عمر نوح كما أسلفنا الف سنة من حساب قومه (بدليل أنه لبث فيهم)، يطرح منه خمسين عاما، فتكون الحسبة على النحو التالي:

1000 سنة نوحية – خمسين عاما

1000 (س شهر) – (50 × 12 شهر)

فإذا كانت السنة في قوم نوح هي إثنا عشر شهراً مثل العام يكون نوح قد عاش فعلاً تسعماية وخمسين عاماً، ولكن مادام أنه قد عاش ألف سنة إلا خمسين عاما فهذا يدل على أنّ العام يختلف عن السنة وإلاّ لما تغير اللفظ (كما الحال في أهل الكهف)، وبالتالي فنحن بحاجة لحساب عمر نوح إما بالسنة أو بالعام (بواحدة من الطرق)، فالقرآن الكريم قدّم لنا عمر نوح باستخدام السنة والعام معاً "أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا"، فالسؤال المفاجىء للباحث بعلوم القرآن هو: هل عاش نوح تسعماية وخمسين سنة أم تسعماية وخمسين عاما؟

لقد درج جل الفكر الإسلامي إلى عدم التميز (إلا بحفنة من المعاني المجازية التي قلما ترضي حتى من يقدمها) بين اللفظين، وها نحن نقدم هنا تمييزاً حقيقياً بينهما.

فلنحسب عمر نوح الحقيقي بالبحث عن طول السنة التي كان يحسبها قومه، فلقد ذكرنا آنفاً أنّ مجتمع نوح قد تميز بوفرة مياه الأمطار وكثرة الأنهار وفساحة الأرض الممتدة والجبال العالية وكثرة الأموال ووفرة اليد العاملة:

- ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾ [هود: 43]
- ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١﴾ [نوح: 11]
- ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: 12]
- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾ [نوح: 19-20]

فعندما تتوافر هذه الظروف جميعها، يصبح من الطبيعي إستغلال جميع المواسم الزراعية، فتكثر المحاصيل الحقلية والشجرية ويصبح هناك أكثر من موسم زراعي، أي أكثر من سنة، فلا عجب أنْ يكون هناك موسمان أو ثلاثة أو حتى أربعة مواسم زراعية، فإذا كان هناك موسمان كان العام سنتان وإذا كان هناك ثلاثة مواسم أصبح العام ثلاث سنين وإذا كان هناك أربعة مواسم أصبح العام أربع سنين.

فتصبح إحتمالات عمر نوح على النحو التالي:

1. (1000 × 1) – 50 = 950 عاما
2. (1000 ×½) - 50 = 450 عاما
3. (1000 × ⅓) - 50 = 283.333 عاما
4. (1000 × ¼)- 50 = 200 عاما

فالإحتمالات هي أنّ نوحاً قد عاش تسعماية وخمسين عاماً أو 450 عاماً أو 283 عاماً أو 200 عاما، وما نحن بحاجة له هو البحث عن طول السنة النوحية لنقرر عندها كم كان عمر نوح محسوباً بالعام.

والدقة تستلزم أيضاً القول أن السنة الزراعية تحسب بدورة الشمس بينما العام يحسب بدورة القمر (ولا علاقة له بالمواسم الزراعية)، وما دامت دورة القمر أقل من دورة الشمس بحوالى عشرة أيام تصبح عملية الطرح النهائية تستوجب أخذ الفارق بعين الإعتبار الذي سنحسبه في نهاية الأمر.

ونكتفي هنا إلى الإشارة إلى أنّه بتوافر عوامل الزراعة كالأمطار (يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) والأنهار (وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا) والأرض الخصبة الممتدة (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا) والجبال العالية الشجرية (قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء) ووفرة المال والأيدي العاملة (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ) تكون الفصول جميعها مواسم زراعية ناجحة وتتنوع المحاصيل الزراعية، ونحن نعلم أنّ الزراعة تكون على واحدة من الأشكال التالية:

- ⇐ زراعة موسم واحد في العام وبهذا تكون المجتمعات تحسب العام سنة والسنة عاما
- ⇐ زراعة موسمين في العام الواحد، فتكون سنة المزارع في العام مرتين
- ⇐ زراعة فصلية في العام الواحد، فتكون زراعة دائمة وهي على مدار الفصول الأربعة، فتتكرر سنة المزارع في العام الواحد أربع مرات، ولازالت كثير من المجتمعات تحسب الزمن بناءاً على مواسمها الزراعية.

ففي حين أنّ العام كان في أرض عزيز مصر- وهي الأرض التي لا تتوافر بها عوامل نجاح الزراعة كما تتوافر في أرض قوم نوح- موسمان (السنابل والعصير) تكون الزراعة في قوم نوح أكثر من موسمين، فهي إذاً فصلية، فيكون العام الواحد أربعة مواسم (سنين)، ويكون عمر نوح هو الإحتمال الأخير (200) عاما.

وأين يمكن أنْ تتواجد الزراعة الفصلية على وجه الكرة الأرضية؟ فنقول هذا ما سنتعرض له لاحقاً.

وبتمحيص الآيات القرآنية نجد المواسم التالية كما ترد في كتاب الله على لسان نوح عليه السلام:

موسم الأمطار

موسم الجنات

موسم الأنهار

موسم التجارة

فالقوم بموسم الأمطار يزرعوا المحاصيل التي تروى بماء المطر، ولديهم موسم الجنات (الأشجار)، وموسم الأنهار بزراعة المحاصيل التي تروى بماء الأنهار أو لربما موسم الصيد (صيد الأسماك من الأنهار)، وموسم التجارة بجني الأرباح (الأموال).

نعم ذلك هو عمر نوح، وذلك هو عمر طويل مقارنة بعمر قومه والأقوام الأخرى، فلو كان نوح قد عاش ما يقرب ألف عام كما يظن البعض بينما كانت أعمار قومه عادية كباقي الأمم لكان هناك –على أقل تقدير- معضلتان أساسيتان وهما (1) من هم قومه الذين اهلكهم الطوفان، فلا شك أنّ نوحاً قد عايش بذلك أجيالاً وليس جيلاً واحدا و (2) ألم يكن عمر نوح بحد ذاته سيشكل دليلاً كافياً على صدق رسالته؟ فكيف ستكذب الغالبية الساحقة من قومه من عاش هذا العمر الطويل جداً بين ظهرانيهم؟ فإن كان كذبه جيل كان سيصدقه أجيال.

أما إذا كان ذلك عمر نوح وعمر الغالبية من قومه لما كان الله سيتحدث عن عمر نوح في سياق الحديث عن دعوته، فالله سبحانه لم يتحدث عن عمر أي نبي آخر بشكل محدد بعدد السنين والأعوم، فما الداعي أنْ يتحدث عن عمر نوح على وجه التحديد؟ فقد يرد البعض بالقول لأنه كان نبياً معمرا، فنقول ألم يكن إبراهيم نبياً معمراً؟

- ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود: 72]
- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: 39]

ألم يعمر يعقوب طويلاً، وهو الذي عاش حتى أصبح من ولده (وليس أكبرهم) عزيز مصر؟

ألم يكن زكريا معمرا وهو الذي دعا ربه الذرية بعدما بلغ من الكبر عتيا؟

- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم: 8]

ألم يكن شعيب نبياً معمرا، وبناته هم من رعوا الغنم عندما كان ابوهم شيخاً كبيرا؟

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: 23]

ولكن مَن مِن هولاء تم تحديد عمره بالأرقام؟ فقط نوح.

ولنحسب عمر نوح (عليه السلام) من هذا المنظور، فلقد عاش نوح ألف موسم زراعي، وما دامت الزراعة في تلك الأرض كما أسلفنا فصلية، تكون الحسبة على النحو التالي:

(1000 × ¼) = 250 سنة ميلادية

وبحساب ذلك بالأيام، يكون 250 سنة شمسية ميلادية تساوي

250 × 365 = 91250 يوماً

ولكن ينقص من ذلك 50 عاماً، ونحن نعرف أنّ العام القمري ينقص حوالي عشرة أيام عن السنة الشمسية، فتكون فترة الخمسين عاما تساوي:

50 × 355 = 17750 يوماً

وعندما نطرح هذا الرقم من مجموع الأيام التي عاشها نوح (91250)، تصبح النتيجة على النحو التالي:

91250- 17750 = 73500

فلقد عاش نوح (73500) يوما، ولحساب السنة الميلادية، يقسم ذلك الرقم على 365 فتكون النتيجة على النحو التالي:

73500 ÷ 365 = 201.3698630سنة ميلادية (والله أعلم)

وهذا عمر طويل مقارنة بأعمار البشرية منذ بدء الخليقة وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو العمر الذي لن يستطيع الإنسان تجاوزه بأدواته المادية وإنْ تطورت، وهو العمر الذي جعل نوحاً معمراً في قومه ومعمراً مقارنة بالإمم الأخرى، وهو العمر الذي لن ينتفي معه الدليل الإيماني العلمي، فلا شك أنّ نوحا قد عاصر برسالته جيلاً وليس أجيالاً من قومه، فالجيل الذي جاءته الرسالة هو نفس الجيل الذي وقع عليه العذاب الرباني لمّا كذب رسالة نبيهم لهم.

أسأل الله أن أعلم منه ما لا تعلمون، وكفى بالله رقيبا. وكفى بالله شهيدا، وكفى بالله وكيلا، وكفى بالله حسيبا، وكفى بالله نصيرا.